الحيدة والاعتذار

(أكبر مناظرة للقائلين بخلق القرآن)

لعبد العزيز بن يحيى الكناني

المتوفى عام ٢٤٠هـ

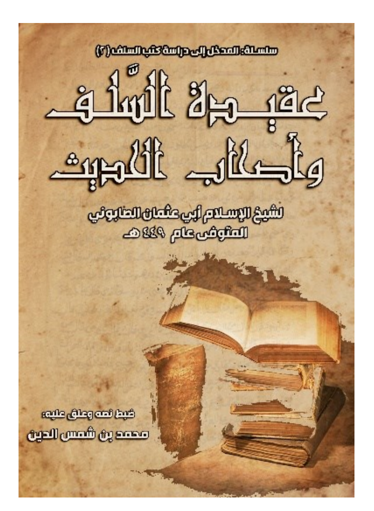


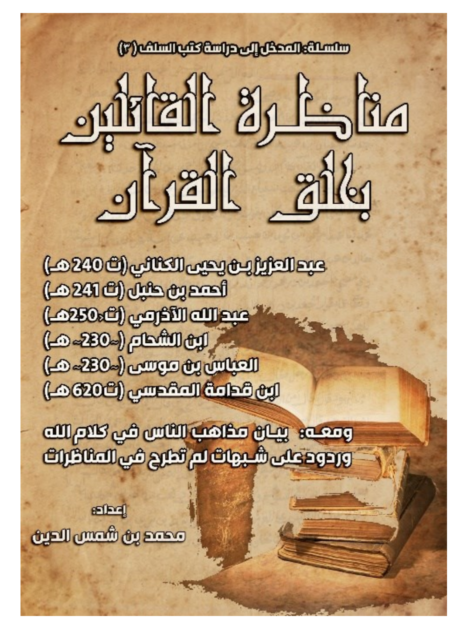
هذا الكتاب جزء من كتاب جامع بعنوان
«مناظرة القائلين بخلق القران»

لمحمد بن شمس الدين

صدر من سلسلة المدخل إلى دراسة كتب السلف







الفهرس

مقدمة التحقيق

نبذة عن كتاب الحيدة

كتاب الحيدة يتميز بإمامة وجلالة كاتبه، وأنَّه من تلاميذ السَّلَف الصالح، كذلك احتواء الكتاب لبعض القواعد المهمة التي تنفع المسلم لاحقا، ومنها ما يتعلف بالكلام المفصل والموصل، والخاص والعام، وغيرها من قواعد تسير معه في سائر العلوم.

ومما يؤخَذ عليه: قول عبد العزيز للمأمون في غير ما موضع أنه «لو كان كذا فدمي حلال» وهو يريد بذلك أن يبين وثوقه من قول نفسه، لكن لا يجوز لأحدٍ أن يبيح دمَ نفسه، كما أنَّه يلزَم فيمَن يخاطِب مثل هذا الفاجر المأمون أن يخوِّفه من أمر الدماء، ويعظِّمها عنده، لأنَّ مثل هذا الكلام يشجِّعه على الإيغال فيها.

وقد يلوم لائمٌ عبدَ العزيز على تملُّقِه للمأمون في الكلام، وهذا قد يكون مِن باب استجذابِ سَمعه، وتليين جانبه للحقِّ، وعدم تنفيره من كلام عبد العزيز.

قال الشيخ محمد بن عبد الرحمن المغراوي عن هذا الكتاب: «وهو من أروع الكتب التي حملت قوة علم السلفيين، وشجاعتهم، وقوة ثباتهم وعدم

مبالاتهم بالسلطان المبتدع الضال، ومن قرأ الكتاب يتبين له جهل المبتدعة بالمعقول والمنقول، وأن سلاحهم الوحيد في نشر بدعهم هو الحيلة والمكر والروغان المستمر، وعدم معرفتهم بباطلهم والرجوع إلى الحق. ولما لهذا الكتاب من مكانة في العقيدة السلفية، حاول أعداء هذه المدرسة الطعن في الشخص والكتاب» [١]

وقد اعتمدت في التحقيق على مخطوطة مكتبة جامعة الملك سعود رقم (١٣٠٠)، ومخطوط شستربيتي (٣٠٤٧)، واستفدت من المطبوع بتحقيق علي الفقيهي، وليس فيه الكتاب الثاني الذي حكى فيه عبد العزيز ما جرى بعد المناظرة.

---

[١] موسوعة مواقف السلف (ج٣ص٤٨٣)

نُبذَة عن مؤلف كتاب الحيدة والإعتذار [١]

هو عبد العزيز بْن يحي بْن عبد العزيز بن مسلم بن ميمون، الكناني المكي

قال الدَّارَقُطْنِيّ: قرأت في كتاب داود بن علي الأصبهاني الذي صنفه في فضائل الشافعي، وذكر فيه أصحابه الذين أخذوا عنه، فقال: وقد كان أحد أتباعه والمقتبسين عنه، والمعترفين بفضله عبد العزيز بن يحي الكناني المكي، كان قد طالت صحبته للشافعي واتباعه له، وخرج معه إلى اليمن، وآثار الشافعي في كتب عبد العزيز المكي بينة عند ذكر الخصوص والعموم والبيان.

وَنقل الْخَطِيب أن عبد الْعَزِيز دخل على أَحْمد بن أبي دؤاد المعتزلي وَهُوَ مريض بمرض الشلل النِّصفي(الفالج) فَقَال له: «إني لم آتِك عَائِدًا وَلَكِن جِئْت لِأَحْمَد الله أن سجنك في جِلْدك»

من شيوخه:

- الشافعي.

---

[١] مصادر الترجمة: موسوعة الدارقطني، طبقات الشافعيين، وغيرها.

- سفيان بن عيينة.
- مروان بن معاوية الفزاري

ومن تلاميذه:

- الحسين بن الفضل البجلي
- أبو العيناء محمد بن القاسم بن خلاد
- أبو بكر يعقوب

من كتبه

- الحيدة والاعتذار (كتابنا هذا)
- الرد على الزنادقة والجهمية (لم أصل إليه مطبوعًا ولا مخطوطًا، ولكن المؤلف ذكره، ونقل عنه أحمد ابن تيمية)

نبذة عن بشر المريسي

قال ابن خلكان: أبو عبد الرحمن بشر بن غياث بن أبي كريمة المَريسي الفقيه الحنفي المتكلم. أخذ الفقه عن القاضي أبي يوسف الحنفي، إلا أنه استغل بالكلام، وجرد القول بخلق القرَان، وحكي عنه في ذلك أقوال شنيعة، وكان مرجئاً. ويقال: إن أباه كان يهودياً صياغاً بالكوفة [١]

وقال: وسمعت أهل مصر يقولون: إن المريس جنس من السودان بين بلاد النوبة وأسوان من ديار مصر وكأنهم جنس من النوبة، ثم إني رأيت بخط من يعتني بهذا الفن أنه كان يسكن في بغداد بدرب المريس فنسب إليه.

والمَريس: في بغداد هو الخبز الرقاق يمرس بالسمن والتمر.

وقال الذهبي عنه: المُتَكَلِّمُ، المُنَاظِرُ، البَارِعُ، كَانَ بِشْرٌ مِنْ كِبَارِ الفُقَهَاءِ. أَخَذَ عَنِ: القَاضِي أَبِي يُوْسُفَ. (٢)

---

[١] وفيات الأعيان ج١ص٢٧٧.

(٢) قلت: وهنا أنبِّه مِن اغترار العوام في المقدمة التي يقدمها الذهبي فيصف الشخص بالفقه والذكاء والورع أو ما شابه، فيحسن القارئ الظن بصاحب الترجمة، ثم إذا أكمل القراءة قد يجد من خزايا ذلك الشخص ما يجد، وهذا أسلوب الذهبي في غالب كتابه.

قال: وَنَظَرَ فِي الكَلاَمِ، فَغَلَبَ عَلَيْهِ، وَانْسَلَخَ مِنَ الوَرَعِ وَالتَّقْوَى، وَجَرَّدَ القَوْلَ بِخَلْقِ القرَان، وَدَعَا إِلَيْهِ، حَتَّى كَانَ عَيْنَ الجَهْمِيَّة فِي عَصْرِهِ وَعَالِمَهُم، فَمَقَتَهُ أَهْلُ العِلْمِ، وَكَفَّرَهُ عِدَّةٌ، وَلَمْ يُدْرِكْ جَهْمَ بنَ صَفْوَانَ، بَلْ تَلَقَّفَ مَقَالاَتِهِ مِنْ أَتْبَاعِهِ. وَكَانَ جَهْمِيّاً، لَهُ قَدَرٌ عِنْدَ الدَّوْلَةِ، وَكَانَ يَشْرَبُ النَّبِيذَ.

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الأَثْرَمُ: سُئِلَ أَحْمَدُ عَنِ الصَّلاَةِ خَلْفَ بِشْرٍ المَرِيْسِيِّ، فَقَالَ: لاَ تُصَلِّ خَلْفَهُ.

وَصَنَّفَ كِتَاباً فِي التَّوْحِيْدِ، وَكِتَابَ (الإِرْجَاءِ)، وَكِتَاب (الرَّدِّ عَلَى الخَوَارِجِ) ، وَكِتَابَ (الاسْتِطَاعَةِ) ، وَ (الرَّدِّ عَلَى الرَّافِضَةِ فِي الإِمَامَةِ) ، وَكِتَاب (كُفْرِ المُشَبِّهَةِ) ، وَكِتَابَ (المَعْرِفَةِ) ، وَكِتَابَ (الوَعِيْدِ) ، وَأَشْيَاءَ غَيْرَ ذَلِكَ فِي نِحْلَتِهِ.

عملي في هذا الكتاب

كان هذا الكتاب جزء من كتاب جمعته بعنوان «مناظرة القائلين بخلق القرآن» ثم أفردته لتسهيل الوصول إلى كتاب الحيدة لمن أراده.

- ضبطتُ النص ونسَّقتُه.
- قد أكمل الآية التي يذكر المؤلف جزءً منها.
- وضعت العناوين للفصول، وجعلتها بين معقوفتين [ ]
- بيَّنت ما تيسَّر من الألفاظ والعبارات التي قد تشكل على القارئ.
- لونت كلمة «قال» ونحوها بلون خاص للقائل.
- جعلت أرقام الحواشي منها ما هو إلى الأعلى (١) وهذا ما فيه شرح مفردات أو فوائد، ومنه منخفض [١] وهو ما فيه تخريج أو تنبيه متعلق بالمخطوط.

[كتاب الحيدة والاعتذار]

بسم الله الرحمن الرحيم

وعلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

ذِكرُ ما جرى بين عبد العزيز بن يحيي -رحمه الله- وبين بشرٍ المِريسي

قرأت على أبي عمر أحمد بن خالد في ربيع الآخر عام اثنين وخمسين وثلاثمائة، حدثنا أبو عمرو عثمان بن أحمد بن عبد الله بن السماك قال ثنا أبو بكر محمد بن الحسن بن أزهر بن حسين القطايعي، قال: حدثني أبو عبد الله العباس ابن محمد بن فرقد، قال: حدثني أبي محمد بن فرقد بهذا الكتاب من أوله إلى آخره، قال:

[مقدمة المؤلف]

قال عبد العزيز بن مسلم الكِنَانِي:

اتَّصل بي وأنا بمكة ما قد أظهره بشرُ بن غياث المِرِّيسيّ ببغداد مِن القول بخَلقِ القرَان، ودعائه الناسَ إلى مُوافَقَتِهِ على قولِه ومَذهبه وتشبيهه

على أميرِ المؤمنينَ المأمونِ وعامةِ الناسِ، وما قد دَفع الناسَ إليه مِن المِحنة، والأخذِ في الدخولِ في هذا الكفر والضلالة، وترهُّبُ الناسِ وتَفَزُّعُهم من مناظرته، وإحجامُهم عن الردِّ عليه بما يكسرون به قولَه، ويدحضون به حُجَّتَه ويُبطلون به مذهبَه، واستتارُ المؤمنين في بيوتهم وانقطاعُهم عن الجُمعاتِ والجَماعاتِ، وهروبُهم من بلد إلى بلد خوفًا على أنفسهم وأديانِهم، وكثرةُ موافقة الجُهال والرُّعاع من الناس لِبِشرٍ على كفره وضلالته، والدخولِ في بدعته، والانتحالِ لمذهبه، رغبةً في الدنيا، ورهبةً من العِقَابِ في الدنيا الذي لسطوة الأكابر.

قال عبد العزيز بن يحي: فأزعجني ذلك من وطني، وأقلقني وأسهر ليلي أدام فكري وغَمِّي وهَمِّي؛ فخرجت من بلدي متوجهًا إلى ربي عز وجل أسأله سلامتي وتبليغي، حتى قدِمت بغدادَ فشهِدتُ من غِلَظِ الأمر واحتدادِه أضعافَ ما كان يصلُ إليَّ، فَفَزِعتُ إلى ربي أدعوه وأتضرَّعُ إليه راغبًا وراهبًا، وأضع له خدِّي، وأبسطَا إليه يَدِي، وأسأله إرشادي وتسديدي، وتوفيقي ومعونتي، والأخذَ بيدِيْ، وأن لا يُسْلِمَني ولا يَكلَني إلى نفسي، وأن يفتحَ لفهمِ كتابِهِ قلبِي، وأن يُطلِقَ لشَرحِ بيانه لِسَانِي.

وأخلصت لله عز وجل نيتي ووهبتُ له نفسي؛ فعَجَّل تبارك وتعالى إجابَتي، وثبَّتَ عزمي، وشجَّع جَناني، وفتح لفَهمِ كتابه قلبي، وأطلقَ به

لساني، وشرح به صدري، فأبصرتُ رُشدِي بتوفيقه إياي، وأنِست إلى معونته ونصره وتأييده لي، ولم أسكن إلى مشاورةِ أحدٍ من خلقِ اللهِ في أمري، وجعلت أسترُ أمري وأُخفي خَبَري عن النَّاسِ جميعا، خوفًا من أن يَشِيعَ خَبَري، ويُعلمَ بمكاني؛ فأُقتل قبل أن يُسمع كلامي، فأجتمع رأيي على إظهار نفسي وإشهار قولي ومذهبي على رؤوس الخلائق والأشهاد، والقول بمخالفة أهل الكفر والضلال والردِّ عليهم وذكر كفرهم وتبيين ضلالتهم، وأن يكون ذلك في مسجد الجامع في يوم الجمعة.

وأيقنتُ أنهم لنْ يُحدِثُوا عليَّ حادثةً، ولنْ يَعجلون عليَّ بقتل وغيره من العقوبة بعد إشهاري نفسي، والنداءَ بمخالفتهم على رؤوس الخلائق إلا بعد مناظرتي والاستماع مني، وكان ذلك كله بتوفيق الله عز وجل لي، ومعونته إياي.

قال عبد العزيز بن يحي: وكان الناس في ذلك الزمان وذلك الوقت في أمر عظيم، قد مُنِعَ الفقهاءُ والمُحَدِّثُون والمُذَكِّرون والداعون مِن القعود في الجامِعَين ببغداد وفي غيرِهما من سائر الجوامع والمواضِع، إلا بِشرٌ المريسي ومحمدُ بنُ الجهمِ بن صفوان الذي تُعرَف به الجهميةُ، ومَن كان مُوافقا لهما على مذهبهما، فإنهم كانوا يقعُدون إليهما، ويجتمع الناس إليهما فيُعَلِّمُونَهم الكُفر والضَّلالَ، وكل مَن أظهَر مخالَفَتهم، أو ذمَّ مذهبهم، أو اتُّهِمَ بذلك؛

أُحضِر، فإن وافقهم ودخل في كفرهم، وأجابهم إلى ما يدعونه إليه، وإلا قتلوه سِرًّا، أو حمَلوه من بلدٍ إلى بلدٍ، فكم من قتيل لم يعلم به، وكم مِن مضروبٍ قد ظهر أمره، وكم مِمَّن قد أجابهم واتبعهم على قولهم من العلماء خوفًا على أنفسهم لَمَّا عُرِضُوا على السيف والقتل، فأجابوا كرها، وفارقوا الحق عَيانا -وهم يعلمون- لِمَا حَذِروه من بأسهم والوقوع بهم.

قال عبد العزيز: فلما كان في الجُمُعَة التي عزمت فيها على إظهارِ نفسي، وإشهارِ قَولي واعتقادي؛ صليتُ الجمعة بالمسجد الجامع بالرَّصافة من الجانب الشرقي بحيالِ القبلة والمِنبر بأول صفٍّ من صفوف العامَّةِ، فلَمَّا سلَّم الإمامُ من صلاة الجمعة؛ وَثَبْتُ قائمًا على رجلي ليراني الناسُ ويسمعوا من كلامي، ولا يخفى عليهم مقالتي، وناديتُ بأعلى صوتي لابني، وكنت قد أقمتُ ابني بحِيالِي عند الاسطوانة الأخرى، فقلت له: يا بُنَيَّ ما تقول في القرَان؟ قال: كلام الله غير مخلوق.

قال عبد العزيز: فلَمَّا سمِعَ الناسُ كلامِي، ومسألتي لابني وجوابه إياي، هربوا على وجوههم خارجين من المسجد -إلا اليسيرَ من الناسِ- خوفًا على أنفسهم، وذلك أنهم سمعوا ما لم يكونوا يسمعون، وظهر لهم ما كانوا يُخْفُونَ ويكتُمُونَ، فلم يَسْتَتِمَّ ابني الجوابَ لي حتى أتانِي أصحابُ

السُّلطانِ، واحتملوني وابني فأوقفوني بين يَدَي عمرو بن مَسعَدة[1] وكان قد جاء لِيصُلي الجمعة، فلمَّا نظر إلى وجهي، وكان قد سمع كلامي ومسألتي لابني وجوابَ ابني إياي، فلم يحتَجْ أن يسألني عن كلامي، فقال لي: أمجنون أنت؟

قلت: لا.

قال: أفَمُوَسْوِسٌ أنتَ؟

قلت: لا.

قال: أفَمَعتوهٌ أنت؟

قلت: لا، إني لَصَحِيْحُ العَقْلِ، جيِّدُ الفهم، ثابِتُ المَعرِفَةِ والحمدُ لله كثيرًا.

قال: فَمَظلومٌ أنت؟

قلت: لا.

---

(١) عمرو بن مسعدة بن سعيد بن صول الكاتب كنيته أبو الفضل، أحد وزراء المأمون توفي سنة سبع عشرة ومئتين.

فقال لأصحابِه ورَجَّالَتِه[1]: مُرُوا بِهِمَا سحبًا إلى منزلي.

قال عبد العزيز: فحُمِلنا على أيدِي الرِّجالةِ حتَّى أُخرِجنا مِنَ المسجِدِ، ثُمَّ جَعَلُوا يتعادون بنا سَحبًا شديدًا، وأيدينا في أيدي الرجالَة يمنَةً ويَسرَة، وسائر أصحابِه خلفَنَا وقُدَّامَنا، حتى صِرنا إلى منزلِ عمرِو بنِ مسعدة على تلك الحالةِ العنيفة الغليظة، فوقفنا حتى دخل، وأمَرَ بِنَا فأُدخِلنَا عليه وهو جالس في صحن داره على كرسيٍّ حديدٍ، ووسادةٌ عليهِ، فلما صِرنَا بين يديه؛ أقبَلَ عليَّ فقال: من أين أنت؟

قلتُ: من أهل مكة.

فقال: ما حملك على ما فعلت بنفسك؟

قلتُ: طلبًا لثوابِ اللهِ تعالى، ورجاءَ الزُّلفةِ لديه.

قال: فَهَلَّا فعلتَ ذلكَ سِرًا من غير نداءٍ ولا إظهارٍ لمخالفةِ أميرِ المؤمنينَ، أطال الله بقاه. ولكنَّكَ أردت الشُّهرة والرياءَ والسمعة والتسويق

---

(١) هم الجنود الذين يمشون ولا فَرَسَ لهم.

لتأخذ أموال الناس.

فقلت: ما أردتُ من هذا شيئا، ولا أردتُ إلا الوصولَ إلى أميرِ المؤمنينَ والمناظرةَ بين يديه، لا غير ذلك.

فقال: أوَ تَفعلُ ذلك؟

قلت: نعم، ولذلك قصدتُ وبلَغتُ بنفسي ما ترى، بعد خروجي من بلدي وتغَرُّبي مع سلوكِ البراري أنا وَوَلَدِي، رجاءَ تأدية حق الله عز وجل فيما استودعني من الفَهم والعِلمِ وما أُخذ عليَّ وعلى العُلماءِ من البيان.

فقال: إن كنتَ إنما جعلت هذا سببا لغيره إذا وصلت إلى أمير المؤمنين؛ فقد حَلَّ دمُك لمخالفِتك أميرَ المؤمنين.

فقلت له: إن تكلمت في شيء غير هذا، أو جعلت هذا ذريعة إلى غيره فدمي حلالٌ لأمير المؤمنين، وهو في حلٍّ منه.

قال عبد العزيز: فوَثَبَ عمرو قائما على رجليه، وقال: أخرجوه بين يديَّ[1] إلى أمير المؤمنين.

---

(١) أي: أمامي.

قال: فأخرجت، وركبٌ من الجانب الغربي وأنا وابني بين يديه يعدي[١] بنا على وجوهنا، وأيدينا في أيدي الرجالَةِ حتى صاروا إلى أمير المؤمنين من الجانب الشرقي، فدخل وأنا في الدهليز[٢] قائمًا على رجلي، فأطال عند أمير المؤمنين القعودَ، ثم خرج فقعد في حجرة له، وأمر بي فأدخلت عليه، فقال لي: قد أخبرت أمير المؤمنين -أطال الله بقاه- بخبرك وما فعلت، وما قلت وما سألت من الجمع بينك وبين مخالفيك من المناظرة بين يديه، وقد أمر أطال الله بقاه، بإجابتك إلى ما سألت وجمع المناظرين عن هذه المقالة إلى مجلسه أعلاه الله في يوم الاثنين الآتي وتحضُر معهم للمناظرة بين يديه -أيده الله- ويكون هو الحاكم بينكم.

قال عبد العزيز: فأكثرتُ حمدَ الله على ذلك وشكرته وأظهرت الشكر والدعاء لأمير المؤمنين، فقال لي عمرو بن مسعدة: أعطنا كفيلا بنفسك حتى تحضر معهم يوم الاثنين وليس بنا حاجة إلى حبسك.

فقلت له: أعزك الله أنا رجل غريب ولست أعرف في هذا البلد أحدًا ولا يعرفني من أهله أحد، فمن أين لي من يكفلني، وخاصة مع إظهار

---

(١) يجب أن تكون «يعدو» والله أعلم.

(٢) الدهليز هو الممر الذي يكون في داخل البناء أو البيت، وهي كلمة فارسية

مقالتي؛ لو كان الخلق يعرفوني لتبرؤا مني، وهربوا من قربي وأنكروا معرفتي.

قال عمرو: فنوكل بك من يكون معك حتى يحضرك في ذلك اليوم، وتنصرف فتصلح من شأنك وتفكر في أمرك فلعلك أن ترجع عن غيك وتتوب من فعلك فيصفح أمير المؤمنين عن جرمك.

فقلت: ذلك إليك أعزك الله فافعل ما رأيت.

قال عبد العزيز: فوكل بي من يكون معي في منزلي وانصرفت.

فلما كان يوم الاثنين، صليت الغداة في مسجدي الذي كان على باب منزلي، فلما فرغت من الصلاة إذا بخليفة عمرو بن مسعدة قد جاءني ومعه خلق كثير من الفُرسان والرجالةِ فحملوني مكرما على دابة حسنةٍ حتى صاروا بي على باب أمير المؤمنين فأوقفوني حتى جاء عمرو بن مسعدة فدخل فجلس في حجرته التي كان يجلس فيها، ثم أُذِنَ لي بالدخول عليه؛ فدخلت، فلما صِرتُ بين يديه؛ أجلسني، ثم قال لي: أنت مقيم على ما كنت عليه؟، أو قد رجعت عنه؟

فقلت: بل مقيم على ما كنت وقد ازددت -بتوفيق الله إياي- بصيرة في أمري.

فقال لي عمرو: أيها الرجل قد حَمَلتَ نفسَك على أمر عظيم وبلغتَ الغايَة في مَكرُوهِهَا، وتعرَّضت لِمَا لا قَوَام لك به من مخالفة أمير المؤمنين، وادعيت ما لا يثبت لك به حجة على مخالفيك ولا لأحدٍ غيرِك، وليس وراءك بعد الحجة عليك إلا السَّيف، فانظر لنفسِك، وبادر أمرَك قبل أن تقع المُنَاظرة، وتظهر عليك الحُجَّة، فلا تنفعُك الندامَةُ، ولا تُقبَلَ لَكَ مَعذِرَةٌ، ولا تُقَالُ لك عثرة، فقد رَحِمتُك وأشفقتُ عليك مِمَّا هو نازلٌ بك، وأنا استقيلُ أمير المؤمنين أطال الله بقاه وأسألُه الصفحَ عن جُرمِك وعظيمِ ما كان مِنكَ إن أظهرت الرجوعَ عنه والندمَ على ما كان منك، وآخذُ لك الأمانَ منه -أيَّدَهُ اللهُ- والجائزةَ، وإن كانت لك ظلامةً أزلتُها عنكَ، وإن كانت لك حاجة قضيتُها لك، وإنما جلستُ رحمةً لك مما هو نازلٌ بك بعد ساعة إن أقمتَ على ما أنت عليه، ورجوتُ أن يُخَلِّصَك اللهُ على يديَّ مِن عظيم ما أوقعتَ فيه نفسِك.

فقلت له: ما ندمتُ أعزك اللهُ ولا رَجَعتُ، ولا خَرَجتُ عن بَلَدِي، وغرَّرْتُ بنفسي إلا في طلب هذا اليوم، وهذا المجلسِ رجاءَ أن يُبَلِّغِني اللهُ ما أُؤَمِّلُ من إقامَةِ الحق فيه، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وهو حسبي ونعم الوكيل.

قال عبد العزيز: فقام عمرو بن مسعدة على رجليه، وقال: قد حرصت

في كلامِك جُهدي، وأنت حريصٌ مجتهد في سفكِ دمِك وقتلِ نفسِك.

فقلت له: معونةُ الله أعظم، والله عز وجل ألطف من أن يُسْلِمَني ويكلَني إلى نفسي، وعدلُ أميرِ المؤمنين أطال الله بقاه أوسعُ من أن يَقصُرَ عني، وأنا أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

[لقاؤه بالإمام أحمد]

قال محمد بن الحسن[١] سمعت أبا عبد الله[٢] يقول: قال لي أبي[٣] جاء عبدُ العزيز إلى أبي عبدِ الله أحمدَ بنِ حنبلَ رضي الله عنه وهو في الحبس فقال: إن هذا الأمر الذي أنت فيه ليس تطيقه على دِقَّتِهِ، فاذكُرني، فبعث إليه أبو عبد الله أنا قد وقعتُ، وأخافُ أن أذكُرَكَ فأشيطَ بدمِك، فيكونُ قتلَكَ على يدِي، فأُقتلُ أنا أحبُّ إليَّ، فانصرِفْ بِسَلام(٤).

[نصيحة حاجبِ المأمون]

---

[١] هو ابن الأزهر.

[٢] العباس بن محمد بن فرقد.

[٣] وهؤلاء جميعا ورد ذكرهم في إسناد الكتاب.

(٤) يبدو أن هذا قبل مجيئه.

قال عبد العزيز: وأمرَ بي فأُخرجت إلى الدهليز الأول، ومعي جماعة موكلون بي، وكان قد تقدم إلى سائر بني هاشم -ممن يحضر مجلس أمير المؤمنين- أن يركبوا، ووُجِّهَ إلى الفُقَهَاءِ والقُضاةِ المُوافقينَ لهم على مذهبهم، وسائرَ المُتَكلمين(١) والمناظِرِينَ أن يحضروا دار أمير المؤمنين، وأمر القُوَّادَ(٢) والوزراء والأمراءَ أن يركبوا في السلاح، كلُّ ذلك ليُرهِبَنِي بهِم، ومَنَعَ الناسَ من الانصرافِ إلى أن ينقضيَ المجلسُ.

فلما اجتمعَ الناسُ وتتامُّوا ولم يتخلف منهم أحد ممن يعرفونَ بالكلامِ والجِدالِ، أُذِن لي في الدخول، فلم أزل أنقل من دهليز إلى دهليز حتى صرت إلى الحاجِبِ صاحب الستر الذي على باب الصَّحنِ، فلما رآني أمَرَ بي فأُدخِلت إلى حُجرتِه، ودَخل معي فقال لي: إن احتجت إلى أن تُحدثَ طُهرًا فافعل.

فقُلت: لا حاجة لي بذلك.

فقال: فصَلِّ ركعتين قبل دخولِك، فصليت أربع ركعات ودعوتُ اللّٰهَ وتضرعتُ إليه، فلما فرغت؛ أمَر من كان بحضرته فخَرج من الحُجرَة، ثم

---

(١) أهل الكلام في زمانه الجهمية والمعتزلة، لأن الأشاعرة والماتريدية لم ينشؤوا بعد.

(٢) القُوَّاد: جمع قائد.

تقدَّمَ إليَّ فقال لي وهو يساررني: يا هذا إن أميرَ المؤمنين لبَشَرٌ مثلُك، من ولد آدم، وكذلك كل من يُنَاظِرُك بحضرته فهو بَشَرٌ مثلُك، ولا تهيبهم[1]، واجمع فهمك وعقلك لمُنَاظَرَتِهِم، وإيَّاكَ والجَزَع، واعلمْ علمًا يقينًا أنه إن ظَهَرَتْ حجَّتُك عليهِم؛ انكسروا وانقطع كلامُهُم عنك وأذلَلْتَهُم وغلبتَهُم ولم يقدِرُوا على ضَرَر ولا مكروهٍ، وصار أميرُ المؤمنينَ أطال الله بقاه وسائرَ الأولياءِ والرعيةِ معك عليهِم، وإن ظهرَتْ حجتُهُم عليكَ أذلُّوكَ وقتلوك وأشهَرُوكَ وجعلوك للخلقِ عبرةً، فاجمعْ فهمَكَ ومعرفتَك ولا تَدَعْ شيئا مما تُحسِنُه أو تحتاجُ أن تتكلمَ به خوفًا من أميرِ المؤمنيَن أو من أحدٍ غيرِه، وتوكل على اللهِ واستخر الله تعالى، وقم فادخل.

فقلت له: جزاك الله خيرا فقد أديت النصيحة وسكَّنْتَ الرَّوعَة وآنستَ الوَحشة.

[دخول عبد العزيز على المأمون]

وخرج، وخرجتُ مَعَهُ إلى باب الصَّحْنِ.

قال عبد العزيز: فَشَالَ السِّترَ، وأخذَ الرجالُ بيَدَيَّ وعضُدَيَّ وجعل أقوامٌ يتعادون بي وأيديهم في ظهري وعلى عُنُقِي، فجعلتُ أسمع أميرَ المؤمنينَ

---

(١) لعلها «تَتَهَيَّبْهم»

وهو يقول: خَلُّو عنه، خلُّو عنه، وكَثُرَ الضَّجيجُ من الحُجَّابِ والأولياء بمثل ذلك، فخُلَّوا عني وقد كاد عقلي أن يتغير من شِدَّةِ الفَزَعِ وعظيمِ ما رأيتُ في ذلك الصَّحنِ من السِّلاحِ والرجالِ، وقد انبسطت الشمسُ عليهم، وهم ملء الصحنِ صفوفًا، وكنتُ قليل الخبرةِ بدارِ أميرِ المؤمنينَ، ما رأيتُها قبلَ ذلك ولا دخلتُها، فلما صرتُ على بابِ الإيوان[1]؛ وقفتُ هُناك فسمعتُه يقول: قربوه قربوه.

فلما دخلت من باب الإيوان وقَعَتْ عيني عليهِ، وقبلَ ذلك لم أتبيَّنْه لِمَا كان على بابِ الإيوانِ من الحُجَّابِ والقُوَّادِ والوزراء.

فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

فقال: أدن مني.

فدنوت منه.

ثم قال: أدن مني -زاده تكرارا- وأنا أدنو منه خطوة خطوة، حتى صرتُ في الموضِعِ الذي يَجلسُ فيه المُنَاظِرُونَ، ويُسمَع كلامُهُم، والحاجِبُ

---

(١) الإيوان: كلمة فارسية، وهي القاعة التي لها ثلاث جدران وقُبَّة، وتطل من الجهة الرابعة على مكان غير مسقوف.

معي يقدمُني، فلمَّا انتهيتُ إلى الموضِع، قال لي المأمون: «اجلس» فجلست.

قال عبد العزيز: وسمعتُ رجلًا من جُلَسَائِه يقول وقد دخلت من الإيوان: يا أمير المؤمنين يكفيك من هذا قُبحُ وجهِهِ، لا والله ما أريتُ خلقًا للهِ قطُّ أقبحُ وجهًا منه، فسمعتُه يقول هذا وفهمتُ كلامَه كلَّه ورأيتُ شخصَه على ما بي من الرَّعدة والجَزَعِ والخوفِ.

قال عبد العزيز: وتبيَّن لأمير المؤمنين ما أنا فيه وما نزل فِيَ من الجزع والخوف، وجعل ينظُرُ إليَّ وأنا أرتعِدُ وأنتفِضُ، فأراد أن يؤنِسَنِي ويُسَكِّنَ عنِّي ما لحِقَني وأن يبسُطَني؛ فجَعَلَ يُكثر كلامَ جُلَسائه، ويُكلم خليفَتَه عمرو بن مسعدة، ويتكلمُ بأشياءٍ كثيرةٍ مما لا يُحتَاجُ أن يتكلمَ بها، يريد بذلك كلِّه إيناسي، وجعل يطيل النظر إلى الإيوان، ويديرُ طرْفَه فيه، فوقعَتْ عينُه على موضعٍ من نقشِ الجُصِّ قد انفتخ[1]؛ فقال: يا عمرو أما ترى هذا الذي قد انفتخ من هذا النقش، وسيقعُ، فبادِرهُ في يومِنَا هذا، فقال عمرو: قطع الله يدَ صانِعِه، فإنه قد استحق العقوبةَ على عَمَلِه هذا.

قال عبد العزيز: ثم أقبل عليَّ المأمونُ فقال لي: الاسم.

---

(١) الفتخُ هو اللين.

فقلت: عبدُ العزيز.

فقال لي: ابن من؟

فقلت: ابن يحيي.

قال: ابن من؟

قلت: ابن عبد العزيز.

قال لي: ابن من؟

قلت: ابن مُسلم.

قال: ابن من؟

قلت: ابن ميمون الكِنَانِيّ.

قال: وأنت من كِنَانَة.

قلت: نعم، يا أمير المؤمنين.

فتركني ولم يكلمني هُنَيْهَةً، ثم أقبَلَ عليَّ فقال: من أين الرجل؟

قلت: من الحجاز.

قال: من أي الحجاز؟

قلت: من مكة.

قال: من تعرفُ من أهلها؟

قلت: يا أمير المؤمنين كل من بِهَا من أهلِها إلا وأنا أعرفُه، إلا رجلًا ضوى إليها أو جاوَرَ بها من الغُرباء؛ فإني لا أعرفه.

قال: فهل تعرف فلانًا، هل تعرف فلانا، حتى عددَّ جماعَةً من بني هاشمٍ كلَّهم أعرفُهُم حقَّ معرفَتِهِم، فجعلتُ أقولُ: نعم أعرفُه.

وسألني عن أولادهم وأنسابِهِم، فأُخبِرُه من غيرِ حاجةٍ به إلى شيء من ذلك، ولا مِمَّا تقدَّمَ مِن مسألتي، وإنما يريد به إيناسي وبسطي للكلام، وتسكينِ رَوعَتِي وجَزَعِي، فذهب عني ما كان لحقني من الجزع، وجاءت المعونة من الله عز وجل، فقوِيَ بها ظهري، واشتدَّ بها قلبِي، واجتَمَعَ بها فَهمِي، وعلا بها جِدِّي، وانشرح بها صدري، وانطلق بها لساني، ورجوت بها النصرَ على عدوي.

قال عبد العزيز: فأقبَل عليَّ المَأمونُ فقالَ: يا عبدَ العزيزِ إنه اتصل بي ما كان منك وقيامك في المسجد الجامع، وقولِكَ إن القرآن كلام الله تعالى

غيرَ مخلوق بحضرة الخلائقِ على رؤوس الأشهاد، ومسألتَك بعد ذلكَ الجمعَ بينَك وبين المناظرين على هذه المقالة بحضرتي وفي مجلسي، والاستماعَ منك ومنهم، وقد جمعتُكَ والمخالفينَ لكَ للمُناظرة بين يَدَيَّ وأكونُ أنا الحكمُ بينكم، فإن تكن لك الحجةُ عليهم والحقُّ معكَ؛ تبِعناكَ، وإن تكن الحُجَّةُ لهم عليكَ والحقُ معهم؛ عاقبناك واستتبناك.

[قبل بداية المناظرة]

ثم أقبل المأمون على بِشرِ بن غياث المِرِّيسيِّ فقال: يا بشرُ قُم إلى عبد العزيز فناظره وأنصفه.

قال عبد العزيز: فوثَبَ إليَّ بشرٌ من موضِعِه الذي كان فيه كالأَسَدِ يثِبُ إلى فريسته، فجاء فانحط عليَّ، فوضع فَخِذَهُ الأيسرُ على فخذي الأيمن، فكاد أن يَحطِمَهَا، وعَمِدَ عليَّ بقُوَّتِه كُلِّهَا.

فقلت له: مهلًا فإن أميرَ المؤمنينَ لم يأمرْك بقَتلي ولا بظُلمي، وإنما أمرك بمناظرتي وإنصافي.

قال: فصاحَ به المأمونُ تنحَّ عنه، وكرر ذلك عليه مرات حتى أبعده عني.

قال عبد العزيز: ثم أقبل عليَّ المأمونُ وقال: يا عبد العزيز ناظره على

ما يريد واحتج عليه، ويحتج عليك، وسائِله ويُسائلُك، وتناصَفَا في كلامِكُما، وتحفظا ألفاظَكُمَا، فإني مستَمِعٌ لكُما ومتحفظ ألفاظكما.

قال عبد العزيز: فقلت: السمعُ والطاعةُ لك يا أمير المؤمنين، ولكني أقول شيئا فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي فيه فعلَ.

فقال: قل ما تريد.

فقلت: يا أمير المؤمنين -أطال الله- بقاك إني رجلٌ عربيٌّ، وفي كلامي دِقَّة، ولم يسمع أميرُ المؤمنين -أطال الله بقاه- من كلامي شيئًا قبلَ هذا الوقت، فجليلُ كلامي في سمع أمير المؤمنينَ دقيقٌ، وبِشرٌ -يا أميرَ المؤمنين- رجب قد كثر سماعُ أميرِ المؤمنينَ لكلامِه، فصارَ دقيق كلامه في سمعِ أميرِ المؤمنين جَليًّا، فإن رأى أميرُ المؤمنين -أطال الله بقاه- أن يأذن لي أن أُقَدِّمَ شيئًا من كلامي في هذا المجلسِ فيقيسَ ما يَدِقُّ بعدَه مِن كلامِي على ما تقدَّم، ويعرفُ مذهبي في كلامي، ثم يجمعُني ومن أحبَّ لمُنَاظرتي بعد هذا اليوم أيَّ وقتٍ شاء.

قال المأمون: أنا مشغول عن هذا بما يلزمُني من أمر المسلمين، وإنما جمعتُكَ ومُخالفيكَ لما أظهرتَ من مُخالفتكَ إياهُم وذَمِّكَ مذهَبَهم، وادعائِك الردَّ عليهِم، ومسألتَك الجمعَ بينك وبينَهم، ولستُ أجمعُك وإياهُم بعدَ هذا

المجلسِ إلا عن مناظرة تجري بينك وبينُهم فتَحتاجُون إلى عودة لاستتمام ما بَقِيَ عليكُما من المُنَاظَرَةِ فأجمعُكما لذلك.

قال عبد العزيز: فقلت في نفسي، هذا الذي سألت الله عز وجل أن يُبَلِّغْنِيه وعاهدتُه لأن بَلَّغَنِيه لأقومَنَّ بحقِّهِ ولأُذُبَّنَّ عن دينه بما يُلهِمني من توفيقِه صابرًا محتسبًا وإن عُرِضتُ على السيف والقتل حتى إذا بلَّغَنِيَ اللهُ ما أملته وأعطاني ما سألتُه، وأيَّدَني بالمَعونة، وكفاني المُؤنة وعطفَ قلوبَ عبادِه عليَّ، وصرفَ عني ما كنتُ أُحاذرُ من سوءِ بادِرةٍ تكونُ قبلَ قيامي بحق الله تعالى؛ أأنقض عهده، وأخلف وعدَه، وأكفُرُ نِعمَه؛ فيسخط علي ويخذلني ويكلني إلى نفسي، والله لا فعلت ولو تلفت نفسي.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أميرَ المؤمنين إني لم أتهيَّبِ المناظرةَ ولم أعجَز عنها، وإنما أحبَبْتُ أن أُقَدِّمَ في هذا المجلس شيئا من كلامي ليَقِفَ من بحضرةِ أميرِ المؤمنين -أطال الله بقاه- ومن في مجلسه على معنى كلامي ودقَّتِه فلا يَخفَى علَيهِم بعدُ مما يَجرِي شيء.

قال: فقال المأمونُ لبشرٍ: ناظِر صاحبَك على ما يُريد.

قال عبد العزيز: فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين -أطال الله بقاك- إن رأيت أن تأذن لي فأتكلم في شيء قد شغل قلبي قبل مُناظَرتي لبشر.

فقال لي: تكلم بما شئت فقد أذنتُ لك.

فقلت: أسألُك بالله يا أمير المؤمنين، من بَلَغَك أنه كان أجمَلَ البَشّر من وَلَدِ آدَمَ ﷺ؟

قال: فأطْرَقَ مَلِيًّا، ثم رفع رأسه فقال: يوسُف ﷺ.

فقلت: صدقت يا أمير المؤمنين، فوالله ما أُعطِيَ يوسفُ الصِّدِّيقُ على حُسنِ وجهِهِ حبَّتِين، ولقد سُجِنَ وضُيِّقَ عليهِ مِن أجلِ حُسنِ وجهِه بعد أن وُقِفَ على براءته بالشاهِدِ الذي أنطقَه اللهُ -تعالى- بتصديقِه وبيانِ براءته وبعدَ إقرارِ امرأةِ العزيزِ أنها هي راودته عن نفسه فاستعصم، فحُبِسَ بعد ذلك كلَّه لحُسنِ وجهِهِ، قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾ [يوسف:٣٥] فدَلَّ بقولِهِ على أنه سُجِنَ بغيرِ ذنب لِعلَّةِ حُسنِ وجهِه وليُغَيِّبُوهُ عنها وعن غيرِها، فطالَ في السجن حبسُه حتى إذا عبَّرَ الرؤيا التي رآها الملك، وقف الملكُ على علمِه ومعرفَتِه فاشتاقَ إليه، ورغبَ في صُحبَتِه، فقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤﴾ [يوسف:٥٤] وكانَ هذا القولُ من المَلِكِ عندما وَقَفَ عليهِ مِن علم يوسف ومعرفتِه قبلَ أن يسمعَ كلامَه، فلَمَّا دَخَلَ عليهِ وسمِع كلامَه وحُسنَ عِبارتِه

صيَّرَه على خزائن الأرض، وفَوَّض إليه الأمورَ كلَّها وتبرّأ منها وصارَ كأنَّه مِن تحتِ يَدِهِ، فكانَ هذا الذي بَلَغَهُ يوسُفُ ﷺ بكلامِه وعلمِه لا بحسنه وجمالِه، قال الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝٥٤ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥﴾ [يوسف:٥٤-٥٥] ولم يقل إني حسن جميل، قال الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ نَشَآءُۚ﴾[يوسف:٥٦] فوالله يا أمير المؤمنين ما أبالي إن وجهِي قبيح مع ما هو فيه من حسن العلم والفَهم.

فقال لي المأمون: وأيُّ شيء أردتَ بهذا القولِ، وما الذي دعاكَ إلى ذكرِ هذا؟

فقلت: سمعتُ بعضَ مَن هاهُنا يقولُ لأمير المؤمنين: يكفيكَ من كلامه قُبحُ وجهِهِ، فما يضرُّني قبحُ وجهي مع ما قد رَزَقَنِيَ اللهُ عز وجلَّ مِن فهمِ كِتَابِه، والعلمِ بِسُنَّةِ نبيِّهِ ﷺ.

قال: فتَبَسَّمَ المأمونُ حتى وضع يده على فيه.

ثم قلتُ: يا أميرَ المؤمنينَ، فقد رأيتُكَ تنظُرُ إلى هذا النقشَ وانفتاخَ الجُص وتذكُرَهُ، وسمَعتُ عُمَرًا يَعِيبُ ذلكُ ويدعو على صانِعِه، ولا يعيبُ الجُصَّ، ولا يدعو عليه؟

فقال المأمون: العيبُ لا يقعُ على الشيءِ المصنوعِ، وإنما يقعُ العيبُ على الصّانع.

قلتُ: صدَقتَ يا أميرَ المؤمنين، ولكن هذا يعيبُ ربِّي عزَّ وجلَّ لِمَ خَلَقَنِي قبيحًا.

فازدادَ تبَسُّمًا حتى ظَهَرَتْ ثناياه.

[بدايةُ المناظرة]

قال عبد العزيز: فأقبل عليَّ المأمونُ وقال: يا عبدَ العزيز: ناظر صاحبَك فقد طال المجلس بِغَيرِ مناظرة.

فقلت: يا أمير المؤمنين -أطال الله بقاك- كل متناظرَين على غيرِ أصلٍ يكونُ بينَهُما يرجِعَانِ إليهَ إذا اختلفا في شيء من الفروع؛ فهما كالسائِر على غير طَّرِيقِ، لا يعرفُ الحُجَّةَ فيتبَعَهَا ويسلُكَها وهو لا يعرف الموضِع الذي يريدُ فيقصدَه، ولا يدري من أين جاء فيرجِعُ يطلبُ الطريقَ فهو على ضلال أبدا.

ولكننا نؤصِّلُ بيننا أصلا، فإذا اختلفنا في شيء من الفُروعِ ردَدناهُ إلى الأصلِ، فإن وجدنَاهُ فيهِ وإلَّا رمَيْنَا به ولم نلتفت إليه.

فقال المأمون: نِعْمَ ما قُلتَ، فاذكرِ الأصلَ الذي تُريدُ أن يكون بينكما، وَيَذكُرُ بشرٌ أيضًا مثلَه حتى تتفقا على الأصل فتؤصلاه بينكما.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين -أطال الله بقاك-: أؤصل بيني وبينه ما أمَرنا الله به واختارَه لنا وأدَّبَنا به وعلَّمنا ودلَّنَا عليه عند التنازع والاختلاف، ولم يكِلنَا إلى أنفسنا ولا إلى اختيارنا.

فقال المأمون: وذلك موجود عن الله عز وجل؟

قلتُ: نعم يا أمير المؤمنين قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٨﴾ [النساء:٥٩]

فهذا تعليمُ اللهِ وتأديبُه واختيارُه لعباده المؤمنين، وهو خيرٌ وأحسنُ ما أصَّلَهُ المُتنازعون بينهم، وقد تنازَعتُ أنا وبشرٌ فنحن نؤصل بيننا كتابَ اللهِ تعالى وسنةَ رسوله ﷺ كما أُمِرنا، فإن اختلفنا في شيء من الفُروع؛ ردَدناه إلى كتاب الله تعالى، فإن وجدناه فيه وإلاّ رَدَدناهُ إلى سُنَّةِ رسوله ﷺ، فإن وجدناه فيها، وإلاّ ضربنا به عرض الحايط ولم نلتفتْ إليه.

فقال بشر: وأين أمَرَنَا الله أن نرد ما اختلفنا فيه إلى كتابه وإلى سنة نبيه ﷺ

قلت: كأنَّك لم تسمعْ ما جَرى وما ابتدأتُ بِه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٨﴾ [النساء:٥٩]

قال بشر: فإنما أمَرَنا اللهُ أن يُرَدَّ إليهِ وإلى الرسولِ، ولم يأمرْنا أن نَرُدَّهُ إلى كِتَابِه ولا إلى سنة رسوله.

فقلت له: هذا مالا خلافَ فيه بين المؤمنين وأهلِ العلم إن رددناه إلى الله تعالى فهو إلى كتابه، وإن رددناه إلى رسوله بعد وفاته فإنما هو إلى سنته، وإنما يشك في هذا الملحدون، وقد رُوِيَ هذا بهذا اللفظُ عن ابن عباس وعن جماعَةٍ من الأئمةِ الذِين أُخذ العلمُ عنهم رحمة الله عليهم.

قال عبد العزيز: فقال لي المأمون: فافعلا وأصلا بينكما يا عبد العزيز أصلًا واتفقا عليه وأنا الشاهد عليكما والحافظ لما ليجري بينكما والحاكم عليكما إن شاء الله تعالى.

فقلت: يا أمير المؤمنين، إنه مَن ألحَدَ في كتابِ اللهِ جاحِدًا أو زائدًا لمْ

يُنَاظَر بالتَّأويلِ، ولا بالتفسير، ولا بالحديث.

فقال المأمون: فبأي شيء تناظرُه.

فقلت: بنص التنزيل كما قال الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ٣١﴾ [الرعد:٣٠]

وقال تعالى: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ ١٥٢﴾ [الأنعام:١٥١]

وقال حين ادَّعَتِ اليهودُ تحريمَ أشياء لم تحرَّم عليهم: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٣﴾ [آل عمران:٩٣]

وقال عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ [النمل:٩٢] فإنما أمر الله نبيه بالتلاوة، ولم يأمره بالتأويل، وإنما يكون التأويل لمن أقرَّ بالتنزيل، فأما من ألحَدَ في التنزيل فكيف يُنَاظَرُ بتأويلِه.

فقال لي المأمون: أوَيخالِفُكَ في التنزيل؟

فقلت: نعم ليخالفني، أو لِيَدَعَ قولَه ومذهبَه ويوافقَني على مذهبي.

قال عبد العزيز: ثم أقبلتُ على بشرٍ فقلتُ: يا بشرُ ما حُجَّتُكَ على أن القرَان مخلوق، وانظر إلى أحَدِّ سهمٍ في كنانتك فارمني به، ولا تحتاجُ إلى مُعاوَدَتِي بغيرِه.

[كون القرَان شيئًا]

فقال بشرٌ: أتقول القرآن شيءٌ أم غيرُ شيءٍ؟ فإن قلتَ إنه شيءٌ فقد أقرَرتَ إنه مخلوقٌ إذ كانتِ الأشياءُ كلُّها مخلوقةً بِنَصِّ التنزيلِ، وإن قُلتَ: «إنه ليس بشيءٍ» فقد كفرتَ لأَنَّكَ تزعُمُ أنه حُجَّةُ الله على خلقه، وأن حجةَ الله ليسَ بشيء.

قال عبد العزيز: فقلت لبشر: ما رأيت أعجبَ منك تسألني وتجيبُ نفسَك عني وتكفرُني ولم تسمع كلامي ولا قولي، فإن كنتَ سألتَ لأُجيبُك، فاستَمع مني فإني أحسِنُ أن أعبِّرَ عن نفسي وأحتجَّ عن مَقالَتِي ومذهبي، وإن كنتَ إنما تريدُ أن تَخطُبَ وتتكلمَ لتُدهِشَنِي وتُنسيني حُجتي؛ فلن أزداد بتوفيق الله إيايَ إلا بصيرة وفهما، وما أحسبُك يابشرُ إلا قد تعلمت شيئا أو سمعتَ قائلا يقول هذه المقالة التي قلتَها أو قرأتَها في كتابٍ فأنت تكره أن تقطَعَها حتى تأتِيَ على آخرها.

قال عبد العزيز: فأقبل المأمون على بشرٍ فقال: صدق عبد العزيز، اسمَع مِنه جوابَه ورُدَّ عليه بعد ذلك بما شِئتَ مِنَ الكلامِ.

ثم قال لي: تكلم يا عبد العزيز وأجبه عما سألك عنه.

قال عبد العزيز: فقلت لبشر: سألتَ عن القرَان أهو شيء أم غير شيء، فإن كُنتَ تُريدُ أنَّه شيءٌ إثباتا للوجود ونفيا للعدم؛ فعم هو شيء، وإن كنتَ تريد أن الشيء اسمٌ له وأنه كالأشياء؛ فلا.

فقال بشر: ما أدري ما تقول ولا أفهُمه ولا أعقِلُه ولا أسمَعُه، ولابُدَّ من جواب يُفهمُ ويُعقلُ، إنه شيء؟ أو غير شيء؟

قال عبد العزيز: صدقتَ، إنك لا تفهمُ ولا تعقِلُ ولا تسمعُ ما أقولُ ولقد وصفتَ نفسك بأقبح الصفات، واخترت لها أذم الاختيارات، ولقد ذم الله عز وجل في كتابه من قال مثل ما قلت، أو كان بمثل ما وصفتَ به نفسك، فقال عز وجل: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣﴾ [الأنفال:٢٢-٢٣].

وقال عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ

وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الزخرف:٤٠]

وقال عز وجل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٥﴾ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة البقرة:١٦-١٨].

ومثل هذا في القرآن كثير جدا، ولقد امتدح الله -عز وجل- في كتابه أقواما بحسن الاستماع وأثنى عليهم أحسن الثناء فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٦﴾ ﴾ [الزمر:١٨]

وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [المائدة:٨٣]

وقال عز وجل: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأحقاف:٢٩-٣٠]

وقال المؤمنون: ﴿ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٤ ﴾[البقرة:٢٨٥]

ومثل هذا في القرآن كثير.

فما اخترت لنفسك ما اختاره الرسول، ولا ما اختاره المؤمنون، ولا ما اختاره أهل الكتاب، ولا ما اختاره الجن لأنفسهم.

قال عبد العزيز: قال لِيَ المأمون: دع هذا يا عبد العزيز وارجع إلى ما كنتَ فيه، وبَيِّنه واشرحه، واحتجَّ لنفسِك.

فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الله -عز وجل- أجرى على كلامه ما أجراه على نفسه فلم يتسمَّ بالشيء ولم يجعل الشيءَ اسمًا من أسمائه ولكنَّه دلَّ على نفسِه أنه شيءٌ أكبرُ الأشياءِ إثباتا للوجود ونفيا للعدم، وتكذيبًا منه للزَّنادِقةِ، والدَّهريَّة، ومن تقدمهم ممن جَحَدَ معرفَتَه وأنكر ربوبيته من سائر الأمم، فقال عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿ قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ ﴾[الأنعام:١٩] فدل على نفسه أنه شيء ليس كالأشياء، وأنزل في ذلك خبرا خاصًا مُفرَدًا لعِلمه السابقِ أن جَهمًا وبِشرًا ومَن قال بقولهما سيُلحدون في أسمائه ويُشَبِّهُونَ على خَلقِه، ويُدخلونه وكلامَه في الأشياء المَخلوقَة، فقال عز وجل: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٩﴾[الشورى:١١] فأخرج نفسه وكلامَه وصفاتِه من الأشياء

المخلوقة بهذا الخبر تكذيبًا لِمَن ألحَدَ في كِتَابِه، وافترى عليه، وشبَّهَهُ بِخَلقِه، فقال عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٨٠﴾[الأعراف:١٨٠] ثم عدَّدَ أسماءَه في كتابه فلم يتسمَّ بالشيء، قال النبي ﷺ: إن لله تعالى «تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة» ثم عدها فلم نجده جعل الشيء اسما لله عز وجل، فقلت كما قال الله تعالى، وتأدبت كما أدبني الله تعالى. ثم ذكر جل اسمه كلامه كما ذكر نفسه ودل عليه بمثل ما دل على نفسه ليعلم الخلقُ أنه من ذاته وأنه صفةٌ من صفاته، فقال الله عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾[الأنعام:٩١] فذم الله اليهودِيَّ حينَ نفى أن تكونَ التوراةُ شيئًا، وذلك أن رجلا من المسلمين ناظر رجلا من اليهود بالمدينة، فجعل المسلم يحتج على اليهودي مِنَ التوراة بما علم من صفة النبي ﷺ وذِكرِ نبوَّته فيها حتى أثبت نبوَّتَه ﷺ من التوراة فضحك اليهودي وقال: «ما أنزل الله على بَشَرٍ من شيء» فأنزل الله عز وجل تكذيبه، وذم قوله، وأعظمَ فريَتَه حين جَحَدَ أن يكون كلامُ اللهِ شيئا، ودل بذلك على أن كلامَه شيءٌ ليس كالأشياء، كما دل على نفسه أنه شيء ليس كالأشياء. ثم قال في موضع آخر: ﴿وَمَنۡ

أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾[الأنعام:٩٣] فدل بهذا الخبر أيضا على أن الوحي شيء بالمعنى، وذم من جَحَد أن كلام الله شيء، فلما أظهر الله عز وجل اسم كلامه؛ لم يظهره باسم الشيء، فيُلحد الملحدون في ذلك ويُدخلونه في جُملة الأشياء المخلوقة، ولكنه أظهره عز وجل باسم الكِتَابِ والنُّور والهدى، ولم يقل: «قل: مَن أنزَلَ الشيءَ الذي جاء به موسى» فيَجْعَلُ الشيءَ اسمًا لكلامه، وكذلك سمى كلامه بأسماء ظاهرة يُعرَفُ بها، كما سمى نفسه بأسماءٍ ظاهرة يعرف بها، فسَمَّى كلامَه نورًا، وهُدىً، وشفاءً، ورحمةً، وحقًّا، وقرآنًا، وفرقانً وأشباهَ ذلك لعِلمِه السابِقِ في جهم وبِشرٍ ومَن يقولُ بقولِهِمَا أنهم سيُلحدون في أسمائه وصفاته التي هي من ذاته وسيدُخِلونها في الأشياء المخلوقة.

[الحجة على أنَّ القرآن شيء لا كالأشياء المخلوقة]

فقال بشر: يا أميرَ المؤمنين قد أقر عبد العزيز أنه شيء، وادَّعى أنه ليس كالأشياء، فليأت بنص التنزيل كما أخذ عليَّ وعلى نفسه، أنه ليس كالأشياء، وإلاّ فقد بطل ما ادعاه وصح قولي إنه مخلوق، إذ كنا جميعًا أجمَعْنا واتفقنا إنه شيء، وقلت أنا أنه شيء كالأشياء وداخل في الأشياء، وقال هو ليس هو شيء لا كالأشياء ولا داخل لا الأشياء، فليأت بنص التنزيل على ما ادعاه، وإلا فقد ثبتت الحجة عليه بخلقه إذ كان الله تعالى أخبرنا بنص

التنزيل إنه خالق كل شيء.

قال عبد العزيز: فقال لي المأمون: هذا يلزمك يا عبد العزيز.

وجعل محمد بن الجهم وغيره يصيحون يقولون: ظهر أمر الله وهم كارهون، جاء الحق وزهق الباطل، وطمعوا في قتلي، وجثا بشر على ركبتيه وجعل يقول: أقر واللهِ -يا أمير- المؤمنين بخلق القرآن.

فأمسكت فلم أتكلم حتى قال لي المأمون: مالك لا تتكلم يا عبد العزيز

فقلت: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاك، قد تكلم بشر وطالبني بنص التنزيل على ما قلت وهو المناظر لي فضجيج هؤلاء أي شيء هو؟ وأنا لم أنقطع ولم أعجز عن الجواب وإقامة الحجة بنص التنزيل كما طالبني ولست أتكلم في هذا المجلس ويتكلم فيه غير بشر، إلا أن ينقطع بشر عن الحجة فيعتزل ويتكلم غيره في مكانه.

فصاح المأمون بمحمد بن الجهم وغيره؛ فأمسَكوا.

فقال المأمون: تكلم يا عبد العزيز فليس يعارضك أحد غير بِشرٍ.

فقلت: قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ

لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل:٤٠]

وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨١﴾﴾ [يس:٨٢]

فدل عز وجل بهذه الأخبار كلِّها وأشباهٍ لها كثيرة على أن كلامه ليس كالأشياء وأنه غير الأشياء، وأنه خارجٌ عن الأشياء، وأنه إنما تكون الأشياء بأمره وقوله، ثم ذكر خلق الأشياءِ كلِّها فلم يَدَعْ منها شيئًا إلا ذَكَرَه، وأخرج كلامَه وقولَه وأمرَه منها ليدُل على أن كلامه غير الأشياء وخارج عن الأشياء المخلوقة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأعراف:٥٤]

فجمع في هذه اللفظة الخلقَ كلَّه، ثم قال: والأمر، يعني الأمر الذي كان به هذا الخلق، ففرق عز وجل بين خلقه وبين أمره، فجعل الخلق خلقًا والأمرَ أمرًا، وجعل هذا غير هذا، وهذا غير هذا، فقال عز وجل: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر:٥٠] يقول إذا أردت شيئا فإنما هو كلمح البصر يقول له كن مثلما أُرِيدُ فيكونُ كلمح بالبصر.

وقال عز وجل: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾[الروم:٤] يقول: من قبل الخلق ومن بعد الخلق، ثم جمع عز وجل بين الأشياء المخلوقة في آيات كثيرة من كتابه، وأخبر عن خلقهما بقوله وكلامه، وأن كلامه وقوله غيرها وخارج عنها فقال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ﴾[الأنعام:٧٣]

وقوله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ٨٥﴾[الحجر:٨٥]

وقال عز وجل: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٤﴾[العنكبوت:٤٤]

وقال عز وجل: ﴿حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ٣﴾[الأحقاف:١-٣]

وقال عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ٣٨ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٩﴾[الدخان:٣٨-٣٩]

وقال عز وجل: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ [الروم:٨]

وقال عز وجل: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية:٢٢]

قال عبد العزيز: فقال لي المأمون: يجزيك بعض هذا فاختصر.

فقلت: يا أمير المؤمنين، فقد أخبَرَنا اللهُ عزَّ وجلَّ عن خلقِ السماوات والأرض وما بينهما، فلم يَدَعْ شيئا من الخَلقِ إلا ذكره، وأخبر عن خلقه، وأنه إنما خلقه بالحق، وأن الحق قولُه وكلامه الذي به خلق الخلق كله، وأنه غير الخلق، وخارج عن الخلق، وهذا نص التنزيل على أن كلام الله غيرُ الأشياء المخلوقة، وليس هو كالأشياء وإنما به تكون الأشياء.

فقال بشر: يا أمير المؤمنين -أطال الله بقاك- فقد ادعى أن الأشياء إنما تكون بقوله، ثم جاء بأشياء متباينات متفرقات فزعم أن الله عز وجل يخلق بها الأشياء، فأكذب نفسه، ونَقَضَ قولَه ورجع عمَّا ادعاه مِن حيثُ لا يدري، وأميرُ المؤمنين أطال الله بقاه الشاهدُ عليه وهو الحاكمُ بيننا.

قال عبد العزيز: فأقبَلَ عليَّ المأمونُ فقال: يا عبد العزيز قد قال بشر كلاما قد قلته وتحتاج أن تصحح قولك ولا ينقض بعضه بعضا.

وجعل بشرٌ يصيح ويقول: لو تركناه يتكلم لجاءنا بألف لون مما خَلَقَ اللهُ عز وجل بها الأشياء.

فقلت: يا أمير المؤمنين -أطال الله بقاك- ذهبت الحُجَجُ وانقطع الكلامُ، ورضي بشر وأصحابه بالضجيج والترويج إلى الباطل وقطع المجلس وطلب الخلاص ولا خلاصَ من الله عز وجل.

قال: فصاح المأمون: يا بشر أقبِل على صاحبِك واسمع منه، ودع هذا الضجيج.

وكان قد قعد منا مقعد الحاكم من الخصوم. قال عبد العزيز: ثم أقبَل علي المأمون وقال: تكلم يا عبد العزيز.

فقلت: يا بشر زعمتَ أني قد أتيت بأشياء متباينات متفرقات، فزعمتُ أن اللهَ خلق بها الأشياء؛ فما قلتُ إلا ما قال الله عز وجل في كتابه، وما جئتُ بشيء غير كلام الله ولا قلت ولا أقول. إن الله خلق الأشياء، ولا يخلقها إلا بكلامه.

قال بشر: يا أمير المؤمنين، أليس قد قال إنه خلق الأشياء بقوله وبأمره، وبكلامه، وبالحق.

فقال لي المأمون: بلى قد قلت هذا يا عبد العزيز.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين، قد قلتُ هذا، وما قلته إلا على صحته، ولا خرجتُ عن كتاب الله عز وجل ولا قلتُ إلا ما قال الله عز وجل، ولا أخبرتُ إلا بما أخبرَ اللهُ عز وجل به، مِمَّا يوافق بعضه بعضا، ويصَدِّقُ بعضَه بعضًا، وكلُّ ما ذَكَرَ اللهُ عز وجل أنه خلقَ ويخلُق به الأشياء فهو شيءٌ واحدٌ له أسماءٌ، هو كلام الله، هو قول الله، هو أمر الله، وهو الحق، فقول الله هو كلامه وكلامه هو الحق، والحق هو آمره، وأمره هو قوله، وقوله هو الحق، وهي أسماءٌ شَتَّى لشيءٍ واحد، كما سمى كلامَه نورا وهدى وشفاءً ورحمةً وقرآنًا، وفرقانًا، فهذا مثلُ ذلك، وذلك مثل هذا، وإنما أجرى الله تعالى مثل هذا على كلامه، كما أجراه على نفسه لأنه مِن ذاتِه، فسمَّى كلامَه بأسماءٍ كثيرة، وهي شيء واحد، كما سمى نفسه بأسماء كثيرة وهو واحدٌ أحد فردٌ صمدٌ، وإنما يُنكِر بشرٌ هذا ويستعظمه لقلة فهمه ومعرفته باللغة، ومعنى كلام العرب وألفاظها.

فقال بشر: يا أمير المؤمنين قد أصل بيني وبينه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وزعم أنه لا يقبل إلا نصَّ التنزيل فما لنا ولذكر لغة العرب وغيرِها،

لستُ أقبلُ منه إلا نصَّ التنزيل بما قال أن كلام الله هو قولُه، وهو أمره، وهو الحق.

فقال لي المأمون: ذلك يلزمُك يا عبدَ العزيز لِمَا عقدت على نفسك من الشرط.

فقلت: صدقتَ يا أمير المؤمنين، إن ذلك يلزمني وعليَّ أن آتي به من نص التنزيل.

قال: هاته.

قال عبد العزيز: فقلت: قال الله عز وجل وقد ذكر كلامَه فقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾[التوبة:٦] يعني حتى يسمع القرَان، لأنه لا يقدر أن يسمع كلام الله من الله، وإنما عَنى القرَان، لا خلاف بين أهل العلم واللغة في ذلك.

وقال عز وجل: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ﴾[الفتح:١٥] فسمى اللهُ القرَان كلامَه، وسماهُ قولَه.

وأخبر أن قولَه هو كلامُه بقولِه عزَّ مَن قائل: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟

كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُۖ﴾[الفتح:١٥]

وقال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ﴾[البقرة:٩١] فهذا خبر الله عن القرَان أنه الحق.

وقال عز وجل: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ٦٧﴾[الأنعام:٦٦]

فأخبر عن القرَان أنه الحق، وقال عز وجل: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٩٤﴾[يونس:٩٤] فهذا خبر اللهِ عن القرَان أنه الحق.

وقال عز وجل: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٧﴾[هود:١٧] فهذا خبر الله عن القرَان أنه الحق.

وقال عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن

رَّبِّكُمْۖ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ﴾[يونس:١٠٨]

وقال تعالى: ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١﴾[الرعد:١]

وقال عز وجل: ﴿الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٢﴾[السجدة:١-٣]

وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ﴾[المائدة:٨٣]

وقال عز جل: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾[القصص:٥٣] فهذه كلها ومثلها في القرَان كثير إخبارُ اللهِ عن القرَان أنه الحق، فسماه باسم الحق.

ثم ذكر عز وجل أن القرَان قوله وأن قوله هو الحق، فقال عز وجل: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤﴾[الأحزاب:٤] فهذا خبر الله عن قوله أنه الحق وأن الحق قوله.

وقال عز وجل: ﴿وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السجدة:١٣]

وقالت عز وجل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ﴾ [سبأ:٢٣] فهذه أخبار الله كلُّها عن الحق أنه قوله وأن قوله هو الحق، ومثلُ هذا في القرَان كثير.

ثم ذكر أن الحق كلامُه وأن كلامَه الحقُّ، فقال عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يونس:٣٣] فأخبر عن كلام الله أنه الحق.

وقال عز وجل: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يونس:٨٢] فأخبر عن الحق أنه كلامُه وأن كلامَه هو الحق.

وقال عز وجل: ﴿وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر:٧١] فهذا إخبار الله عز وجل عن الحق أنه كلامه وأن كلامَه هو الحق.

ثم ذكر عز وجل أن القرَان أمرُه، وهو كلامُه فقال عز وجل: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا

﴿يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٣ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٤﴾[الدخان:١-٥] يعني القرَان، فأخبر الله أن القرَان أمرُه، وأن أمرَه القرَان.

وقال عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ﴾[الطلاق:٥] يعني القرَان، فهذا خبر الله تعالى أن القرَان أمره وأن أمره القرَان، فهذا إخبار الله تعالى وقوله وتعليمه لخلقه في كتابه أن القرَان كلامه وأنه الحق وأن الحق كلامه وان الحق قوله وان القرَان أمره، وأن أمره القُرَان، وأن هذه أسماء شتى لشيء واحد وهو الشيء الذي خلق الله به الأشياء وهو غير الأشياء وخارج عن الأشياء وغير داخل في الأشياء، وهو غير الأشياء وبه تكون الأشياء وهو كلامه وهو قوله وهو أمره وهو الحق، فهذا نص التنزيل بلا تأويل ولا تفسي.

فقال المأمون: أحسنت أحسنت يا عبد العزيز.

فقال بشر: يا أمير المؤمنين -أطال الله بقاك- إنه يحب أن يخطُب ويهذي بما لا أعقِلُه، ولا أسمعُه، ولا التفِتُ إليه، ولا أتى بحُجة، ولا أقبلُ من هذا شيئًا.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين -أطال الله بقاك- من لا يعقل عن الله ما خاطب به نبيه ﷺ وما علَّمَه لعبادِه المؤمنين في كتابه، ولا يعلمُ

ما أراد اللهُ بكلامِه وقوله؛ يدعي العلم ويحتج بالمقالات والمذاهب ويدعو الناس إلى البدع والضلالات؟

[لا يستوي السنّيُّ والجهميُّ]

فقال بشر: أنا وأنت في هذا سواء، أنت تنزع بآيات من القرآن لا تعلمُ تفسيرَها ولا تأويلَها، وأنا أرُدُّ ذلك وأدفعُه حتى تأتيَ بشيءٍ أفهمُه وأعقِلُه.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين، قد سمعتَ كلامَ بشرٍ وتسويتَه فيما بيني وبينه، ولقد فرَّقَ اللهُ فيما بيني وبينه، وأخبر أنَّا على غير السَّواءِ، وكذَبه في دعواه.

فقال المأمون: وأين ذلك لك من كتاب الله عز وجل؟

قلت: قال الله عز وجل: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩﴾[الرعد:١٩] فأنا والله يا أمير المؤمنين أعلم أن الذي أنزل عليه ﷺ هو الحق، وأومن به، وبشرٌ يشهد على نفسه إنه لا يعلم ذلك ولا يعقله ولا يقبله ولا هو مما يقوم لي به عليه حجة.

[مبحث الاستثناء والتخصيص]

فلم يقل كما قال الله عز وجل، ولا كما علم نبيه ﷺ أن يقوله، ولا كما قال موسى ﷺ، ولا كما قالت الملائكة، ولا كما قال المؤمنون، ولا كما قال أهل الكتاب، ولقد أخبر الله عن جهله، وأزال عنه التذكرة، وأخرجه عن جملة أولى الألباب، لكن أمير المؤمنين أطال الله بقاه لما خصه الله به من الفضل والسؤدد، ورزقه من دقة الفهم وكثرة العلم والمعرفة باللغة عقَل عن الله وعن قوله وما أراد به وما عنى به فقبله واستحسنه ممن انتزعه بين يديه، وأظهر قبولَه والرضاء بقوله.

فقال بشر: يا أمير المؤمنين قد أقر بين يديك أن القرآن شيء، فليكن عنده كيف شاء فقد اتفقنا على أنه شيء، وقال الله بنص التنزيل إنه: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ﴾[الأنعام ١٠٢] وهذه لفظةٌ لم تَدَعْ شيئا إلا أدخلَته في الخَلقِ ولا يخرُج عنها شيء يُنسب إلى الشيء لأنها لفظة قد استقصت الأشياء كلها وأتت عليها مِمَّا ذكرها الله تعالى ومما لم يذكرها، فصار القرآن مخلوقًا بنص التنزيل بلا تأويل ولا تفسير.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين عليَّ أن أكسِرَ قوله وأكذبه فيما قال بنص التنزيل وأدحض حجته حتى يرجِعَ عن قوله، ويقفَ أميرُ المؤمنينَ على كسر قوله وكذبه وبطلان ما ادعاه.

فقال: هات يا عبد العزيز ما عندك.

فقلت: يا أمير المؤمنين، قال الله عز وجل: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾[الأحقاف:٢٥] يعني الريحَ التي أُرسلَت على قوم عاد، فهل أبقت الريحُ يا بشرُ شيئا لم تدمره؟

قال: لا لم تبقِ شيئًا إلا دمرته، فقد دمرت كل شيء كما أخبر الله تعالى، لأنه لم يَبق شيءٌ إلا وقد دخل في هذه اللفظة.

فقلتُ: قد واللهِ أكذَبَ اللهُ من قال هذا القول بقوله: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا تَرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾[الأحقاف:٢٥] فأخبر عنهم أن مساكنهم كانت باقية بعد تدميرهم، ومساكنهم أشياءُ كثيرة.

وقال عز وجل: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ۝٤٢﴾[الذاريات:٤٢] وقد أتت الريح على الأرض والجبال والمساكِن والشجر وغير ذلك فلم تُصَيِّر شيئًا منها كالرميم.

وقال عز وجل: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾[النمل:٢٣] يعني بلقيس، وكأن بقولك -يا بشرُ- يجب أن لا يبقى شيءٌ يقع عليه اسم الشيءِ إلا دَخَلَ في هذه اللفظة وأوتيته بلقيس، وقد بقي مُلكُ سليمان ﷺ وهو مائة ألف ضعفٍ مما أوتيَتهُ بلقيس لم يدخل في هذه اللفظة. فهذا كله مما يكسر قولَكَ ويدحَضُ حُجتك، ومِثلُ هذا في القُرَان كثيرٌ مما يُبطِل قولَك، ولكني

أبدأ بما هو أشنَعُ وأظهرُ فضيحةً لمذهبِك وأدفَعُ لبدعتك، قال الله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٤﴾﴾[البقرة:٢٥٥]

وقال الله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٥﴾﴾[النساء:١٦٦]

وقال عز وجل: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾[هود:١٤]

[عدم إقرار الجهميَّة بأنَّ لله علماً]

وقال عز وجل: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ﴾[فاطر:١١]
فأخبَرنا الله أخبارًا كثيرة في كتابه، أن له علمًا، أفَتُقِرُّ يا بشرُ أن لله عِلمًا كما أخبرنا أو تخالف التنزيل؟

قال عبد العزيز: فحادَ بشرٌ عن جوابي وأبا أن يُصَرح بالكفر فيقول: «ليس لله عليم» فيكون قد رد نص التنزيل فتُبيَّنُ ضلالتُه وكفره، وأبى أن يقول: «إن لله علما» فأسأله عن علم الله، هل هو داخل في الأشياء المخلوقة أم لا؟ وعلم ما أريد به، وما يلزمه في ذلك من كسر قوله وإبطال حجته،

فاجتلب كلاما لم أسأله عنه.

فقال: معنى علمه إنه لا يجهل.

فأقبلت على المأمون فقلت: يا أمير المؤمنين لا يكونُ الخبر عن المعنى قبل الإقرار بالشيء، وإنما يكون الإقرار بالشيء ثم الخبر عن معناه، فليُقِرَّ بِشرٌ أن لله علمًا كما أخبرنا في كتابه، فإن سألتُه ما معنى العِلمِ -وهذا مما لا أسأله عنه- فليخبرني أن الله لا يَجهَل، وقد حاد بشرٌ يا أمير المؤمنين عن جوابي.

فقال بشر: وهل تعرف الحَيْدَة؟

قلت: نعم، إني لأعرف الحَيْدَةَ في كتاب الله تعالى، وهي سبيلُ الكُفَّارِ التي اتبعتَها.

فقال لي المأمون: يا عبد العزيز هل تجدُ الحَيدة في كتاب الله تعالى؟

قلتُ: نعم يا أمير المؤمنين، وفي سُنَّةِ المُسلمين، وفي لغة العرب.

فقال: وأينَ هي في كتاب الله تعالى.

فقلت له: قال الله عز وجل في قصة إبراهيم الخليل ﷺ حين قال

لقومه: ﴿قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ٧٣﴾[الشعراء:٧٢-٧٣] وإنما قال لهم إبراهيم عليه السلام هذا ليكذبهم ويَعيبَ آلهتهم ويسفهَ أحلامَهم، فعرفوا ما أراد بهم، وأنهم بين أمرين:

إما أن يقولوا: «نعم يسمعونا حين ندعو وينفعونا ويضرونا» فيشهد عليهم بلُغَة قومهم أنهم قد كَذَبُوا.

أو يقولوا: «لا يسمعونا حين ندعو، ولا ينفعونا ولا يضرونا» فينفوا عن آلهتهم القدرة.

وعلموا أن الحجة لإبراهيم عليه السلام -في أيِّ القولين أجابوه- عليهم قائمة، فحادُوا عن كلامِه واجتلبوا كلاما مِن غيرِ ما سألَهُم عنه فقالوا: ﴿بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ٧٤﴾[الشعراء:٧٤] ولم يكن هذا جوابا لمسألة إبراهيم عليه السلام.

يُروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لمعاوية بن أبي سفيان وقد قدم عليه فنظر إليه يكاد يتفقأ شحمًا، فقال: «يا معاوية ما هذه الشحمة لعلها من نومة الضحى ورد الخصوم» فقال له معاوية: «يا أمير المؤمنين رحمك الله علمني وفهمني» ولم يكن هذا جوابا لقول عمر، إنما حاد عن جوابه لعلمِه بما فيه، فاجتلب كلاما غيره فأجاب به.

وأما الحيدةُ لغة العرب فقول امرئ القيس:

تقول وقد مال الغَبيطُ[١] بنا معاً || عقرتَ بعيري يا امرَأ القيسِ فانزِلِ

فقلتُ لها سيري وأرخي زِمَامَه ... ولا تبعديني من جناك المعلل [٢]

ولم يكن هذا جوابا لكلامها، وإنما حاد عن جوابها واجتلب كلاما غيره.

قال: فأقبل المأمون على بشرٍ فقال له: يأبى عليك عبدُ العزيز إلا أن تقر أن لله علمًا فأجبه ولا تحد عن جوابه.

فقال بشر: قد أجبته وأن معنى العلم: أن لا يجهل، وهذا جوابُه ولكنه يتعنت.

قال عبد العزيز: فقلتُ يا أميرَ المؤمنين، صدق أنَّ الله لا يجهل، ولم تكن مسألتي إياه على هذا، إنما سألته أن يقر بالعلم الذي أخبر الله تعالى عنه في كتابه وأثبته لنفسه، ولم أسأله عن الجهل فينفي الجهل عن الله عز وجل، فليُقِرَّ أن لله علمًا، وليَقلْ إن الله لا يجهل.

---

(١) الرَّحْلُ، وهو للنساء يُشَدُّ عليه الهوْدَج [لسان العرب].

[٢] معلقة امرئ القيس.

قال عبد العزيز: ثم التفتُّ إلى بشر فقلت: لا بد من أن تقول: «إنَّ لله علمًا» كما أخبر، أو ترد أخبار الله بنص التنزيل، أو يقف أمير المؤمنين على حَيْدَتِكَ عن جوابي.

فجعل يقول: يا أميرَ المؤمنين، إن نفيَ الجهلِ عنه هو جوابُه وهو الذي عناهُ اللهُ تعالى في كتابِه، وهو والذي يُطالِبُني به واحد، إلا أن اللفظتينِ مختلفتان.

قال عبد العزيز: فقلتُ: يا أميرَ المؤمنينَ إن نفيَ السُّوء لا يثبُتُ به المدح، وإن إثبات المِدحة تنفي السوء، وكذلك نفي الجهل لا يثبت العلم، وإثبات العلم ينفي الجهل.

قال بشر: وكيفَ ذلك؟

قلتُ: إن قولي: «هذه الاسطوانة لا تجهل» ليس هو إثباتُ العلمَ لها.

قال عبد العزيز: ثم أقبلتُ على المأمونِ فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين إنه لم يمدحِ اللهُ في كتابه ملَكا مقربًا ولا نبيًا مُرسَلًا ولا مؤمنًا تقيًّا بنفي الجهلِ ليَدُلَّ على إثبات العِلم، وإنما مدحهم بالعِلم فقال عز وجل: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾[الانفطار:١١-١٢] ولم يقل «لا يجهلون ما يعملون»

وقال عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٤٣ ﴾[التوبة:٤٣]

وقال عز وجل: ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ ﴾[فاطر:٢٨] ولم يقل «الذين لا يجهلون»

فهذا قول الله تعالى ومِدحتُه للملائكة وللنبي ﷺ وللمؤمنين، فمن أثبتَ العلمَ؛ نفى الجهلَ، ومن نفى الجهل؛ أيُثبِتُ العلم؟

وعلى الخلق جميعا أن يثبتوا ما أثبتَ الله عز وجل، وينفوا ما نفى الله عز وجل، ويمسكوا عما أمسك الله عز وجل، فما اختارَ بشرٌ -يا أمير المؤمنين- مِن حيثُ اختار اللهُ لنفسه، ولا من حيثُ اختار للملائكة، ولا من حيث اختار لنبيه ﷺ، ولا من حيث اختار لعباده المؤمنين، فمن أجهلُ ممن اختارَ لنفسه غيرَ ما اختار الله لنفسه ولملائكته ولأنبيائه ولعباده المؤمنين.

قال عبد العزيز: فقال لي المأمون: فإذا قال بشر «إن لله علما» وأقر بذلك فيكون ماذا؟

قلت: اسألُه يا أمير المؤمنين عن علم الله هل هو داخل في الأشياء

المخلوقة حين احتج بقوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[الأنعام ١٠٢] وزعم إنه لم يَبقَ شيءٌ إلا وقد أتى عليه هذا الخبر، فإن قال: «نعم، فقد دخل في الأشياء المخلوقة» فقد شبَّه اللهَ يا أمير المؤمنين بخلقه الذين أخرجهم من بطون أُمهاتهم لا يعلمون شيئا، وكل من تقدم وجوده قبل علمِه؛ فقد دخل عليه الجهلُ فيما بينَ وجودِه إلى حدوثِ علمِه، وهذه صفةُ المَخلوقين، والله عز وجل أعظم وأجل من أن يوصفَ بذلك أو يُنسبَ إليه، ومَن قال ذلك؛ فقد كفر وحلَّ دمُه ووجب على أمير المؤمنين قتلُه.

وإن قال: «إن علم الله خارجٌ عن جملة الأشياء وغيرُ داخل فيها كما أن قوله خارج عن الأشياء وغير داخل فيها» فمِن ثَمَّ تَرَك قولَه وانقَض مذهبه، وثبَتَتْ عليه الحُجَّةُ فيها.

فقال المأمون: أحسنت أحسنت يا عبد العزيز، وإنما فَرَّ بشرٌ أن يُجيبَك في هذه المسألة لهذا.

ثم أقبل عليَّ المأمونُ فقالَ: يا عبدَ العزيزِ، أتقولُ «إن الله عالم»؟

فقلت: نعم يا أمير المؤمنين.

قال: أفتقول: «إنه سميع بصير»؟

قال: قلت: نعم يا أمير المؤمنين.

قال: فتقول «إن له سمعا وبصرا» كما قلتَ «إن له علمًا»؟

فقلت: لا أُطلِقُ هذا يا أمير المؤمنين.

فقال: أفرقٌ بين هذين؟

فأقبل بشر يقول: يا أمير المؤمنين يا أفقَهَ الناس، ويا أعلمَ الناس، يقول الله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ ﴿١٨﴾﴾[الأنبياء:١٨]

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين، قد قدَّمتُ إليك فيما احتججتُ به أن على الناس كلِّهم جميعًا أن يُثبتوا ما أثبت الله، وينفوا ما نفى الله، ويمسكوا عما أمسك الله عنه، فأخبرنا الله عز وجل أن له علما بقوله: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ ﴿١٤﴾﴾[هود:١٤] فقلت؟ إن له علما كما قال، وأخبرنا أنه سميع بصير بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾[سورة غافر:٢٠] فقلت: إنه سميع بصير كما قال، ولم يخبرنا أن له سمعًا وبصرًا،

فقلتُ كما قال، وأمسكتُ عند إمساكِه[1].

فأقبَلَ عليهم المأمون فقال: ما هو مُشَبِّهٌ فلا تكذِبُوا عليه.

فقال بشر: قد زعمتَ أن لله علمًا، فأي شيء هو علم الله؟ ومعنى علم الله؟

فقلت له: هذا مما تفرَّد اللهُ بعلمِه ومعرفته، وحجب عن الخلق جميعًا علمَه فلم يُخبِر بِه مَلَكًا مُقَرَّبًا ولا نبيًّا مُرسَلًا ولا عَلِمَه أحدٌ قبلي، ولا يعلمُه

---

(١) أهل السنة يقولون إن لله تعالى سمعًا، ولله تعالى بصرًا، قال عَبْدُ اللهِ بْنُ يَزِيدَ الْمُقْرِئُ ت٢١٣هـ: «إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ، يَعْنِي أَنَّ لِلَّهِ سَمْعًا وَبَصَرًا» قَالَ أَبُو دَاوُدَ: «وَهَذَا رَدٌّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ» سنن أبي داود (٤٦٥٠) وكانوا ينسبون للجهمية نفي ان يكون لله تعالى سمع وبصر، انظر: نقض المريسي ج١ص٣١٠] و[الابانة الصغرى لابن بطة ص١٢٢]

والسمع مأثور، وذلك في قول عائشة رضي الله عنها: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ **سَمْعُهُ** الْأَصْوَاتَ» رواه أحمد (٢٤١٩٥) وقال شعيب الأرنؤوط: «إسناده صحيح على شرط مسلم» والبصر منصوص عليه في قوله ﷺ: «حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ **بَصَرُهُ** مِنْ خَلْقِهِ» رواه مسلم (١٧٩)

ولهذا فنقول في كلام عبد العزيز: أولا: هو لم يصرِّح بأن لله سمعا وبصرا، ولكنه لم ينف ذلك كما فعلت الجهمية.

ثانيًا: لعله لم يستحضر الدليل في هذه المسألة، فقال ما قال.

أحد بعدي، لأن علم الله أكبر وأوسع وأعظمُ من أن يعلمَه أحد من خلقِه، ألم تسمع إلى قول الله عز وجل: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴿٢٥٤﴾﴾[البقرة:٢٥٥]

وقال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾[الجن:٢٦-٢٧]

وقال عز وجل: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾[الأنعام:٥٩]

وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾[لقمان:٢٧]

أتدري يا بشر ما معنى هذا؟

قال: وأي شيء هذا مما نحن فيه؟

فقال المأمون: قل يا عبد العزيز أنت ما معنى هذا.

قلت: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاك يقول: ولو أن ما في الأرض من

جميع الشجر والخشب والقصب أقلام يُكتَبُ بها، والبحرُ مِدادٌ، يمده من بعده سبعة أبحر بالمِداد، والخلائق كلُّهُم يكتبون بهذه الأقلام مِن هذا الشَّجَر؛ ما نفِدَت كلمات الله، فمَن يبلغ عقله أو فهمُه أو فكرُه كُنهَ عظمةِ اللهِ وسِعَةِ علمه وكثرَة كلماتِه.

وقال عز وجل: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٤﴾ [الكهف:١٠٩] فمن يحدُّ هذا أو يصفُه أو يدَّعي علمَه؟ وقد عجزت الملائكة المقربون عن علم ذلك واعترفوا بالعجز ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢﴾ [البقرة:٣٢] وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٣﴾ [لقمان:٣٤]

وسئل ﷺ عن علم الساعة فقال: «علمها عند ربي في خمس لا يعلمها إلا هو» وتلا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ

تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٣﴾[لقمان:٣٤]»[١] فأخبر أن هذه الخمس مما تفرد الله بعلمه، فلا يعلمها، فإذا كان النبي ﷺ لا يتعلمها، ولا يعلم إلا ما علَّمه، أيجوز لأمته أن يتكلف علمه أو يدعي معرفته.

فقال بشرٌ: لابد أن تقول أي شيء هو علم الله، أو يقفَ أميرُ المؤمنين -أطال الله بقاه- على أنك حِدتَ عن الجواب فأكون أنا وأنتَ في الحيدة سواء.

فقلتُ: إنك تأمرُني بما نهاني اللهُ عنه وحرَّمَ عليَّ القولَ به، وتأمرني بما أمرني به الشيطان، ولست أعصى الله وأرتكب نهيه وأطيع الشيطان وأتبع أمره وأمرك إذ كنتما قد أمرتماني بمعصية الله وارتكاب نهيه.

قال عبد العزيز: فاشتد تبسم أمير المؤمنين من كلامي فقال: يا عبد العزيز أمرك بشر بما نهاك الله عنه وحرم عليك القول به، وأمرك بما أمرك به الشيطان؟

فقلتُ: نعم يا أمير المؤمنين.

---

[١] أصله في صحيح البخاري (١٠٣٩) ورواه أحمد بلفظ قريب من هذا (٤٧٦٦)

قال: ومن أين لك ذلك؟

قلت: من كتاب الله عز وجل، وكلامه بنص التنزيل.

قال: هاتِه.

قلت: قال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾﴾[الأعراف:٣٣] فحرم الله على الخلق جميعا بهذا الخبر أن يقولوا على الله مالا يعلمون. وأمرهم الشيطانُ بضد ذلك، قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٦﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴿١٦٧﴾﴾[البقرة:١٦٨-١٦٩] وهذا أمر الشيطان لنا أن نقول مالا نعلم، وقد اتبع بِشرٌ يا أمير المؤمنين سبيل الشيطان ووافقه على قوله، وأمَرني بما أمرني به الشَّيطان من ارتكاب نهي الله وتحريمِه حين قال: «لا بد أن تقول أي شيء علم الله» وقد أعلمتُه أني لا أعلمُه، ولا علِمَه أحدٌ قبلي، ولا يعلمْه أحدٌ بعدي.

قال عبد العزيز: فكثر تبسم المأمون حتى غطى فمه بيده وأطرق ينكت بيده على السرير.

فقال لي بشرٌ: لو وَرَد عليك اثنان وقد تنازعا في عِلمِ اللهِ عزَّ وجل،

فحلفَ أحدُما بالطلاق أن علم الله هو الله.

وحلف الآخر بالطلاق أن علم الله غير الله.

فقالا لك: «أفتنا في أيماننا» فما كان جوابك لهما؟

قلت: الإمساكُ عنهُما وتركُهُما وجهلَهُما وصرفَهُما بغَيرِ جوابٍ.

قال بشر: يلزَمُك ويَجِبُ عليك إذ كنت تدَّعي العلم أن تجيبهما عن مسألتهما وأن تخرجهما من أيمانِهما وإلاّ فأنت وهُما في الجهل سواء.

قال عبد العزيز: فقلت لبشرٍ: وَيَجبُ عليَّ أن أجيب كل من سألني عن مسألة لا أجدُ لها في كتابِ اللهِ ولا في سنة نبيه الله محمد ﷺ ذكرًا ولا عِلمًا؟ فهذه ليس لها في كتاب الله تعالى أصلًا ولا في سنة رسول الله ﷺ ذكرًا ولا علمًا، قد جَهِلَ السائلُ فيها، وحمُق الحالِفُ عليها.

قال بشر: يجبُ عليكَ أن تُجيبَه عن مسألته، فإنه لا بد لكل مسألة من جواب.

قال عبد العزيز: فقلت: هذا جهلٌ من قائِله.

قال عبد العزيز: ثم أقبلتُ على المأمونِ فقلت: يا أمير المؤمنين، قد

سمعتَ ما قال بشر أنه يجب عليَّ جوابُ كلِّ من سألني عن مسألة، وفُتياه وإخراجه من يمينه بما لا أجده في كتاب الله ولا في سنة نبيه ﷺ.

فلو وَرَدَ عليَّ يا أميرَ المؤمنين ثلاثةُ نَفَرٍ قد تنازعوا في الكَواكَب التي أخبر الله عز وجل أن إبراهيم الخليل ﷺ رأى بقوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾[الأنعام:٧٦] فقال أحدهم: حلفت بالطلاق إنه المريخ، وقال الآخر إنه المشتري، وقال الآخر: حلفت بالطلاق إنها الزُّهرَة، فأفتنا في أيماننا وأجبنا في مسألتنا؛ كان عليَّ أن أجيبهم في مسألتهم وأفتيهم في أيمانهم، وذلك مما لم يخبرنا الله عز وجل به ولا رسوله؟

فقال المأمون: ما ذلك عليك بواجب، ولا لك بلازم.

قال عبد العزيز: فقلت له: فلو ورد علي يا أمير المؤمنين ثلاثة نفر قد تنازعوا في الأقلام التي أخبر الله عنها في كتابه بقوله: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران:٤٤] قال أحدهم: حلفت بالطلاق إن هذه الأقلام من خشبٌ، وقال الآخر: حلفت بالطلاق إنها من نُحاسٌ، وقال الآخر: حلفت بالطلاق إنها من الرَّصاص، فأجبنا عن مسألتنا، وأفتنا عن أيماننا، وذلك مما لم يخبر الله به ولا رسوله ولا يوجد علمه في كتاب الله ولا

في سنة رسوله ﷺ، أكان في يا أمير المؤمنين أن أجيبهم عن مسألتهم وأفتيهم في أيمانهم؟ فقال المأمون: لا ليس عليك إجابتهم ولا فتياهم.

قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، فلو ورد علي ثلاثة نفر وقد تنازعوا في المؤذن الذي يؤذن بين الجنة والنار الذي أخبر الله عز وجل بقوله: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف:٤٤] فقال أحدهم: «حلفت بالطلاق إن المؤذن من الملائكة» وقال الآخر: «حلفت بالطلاق إن المؤذن من الإنس» وقال الآخر: «حلفت بالطلاق إن المؤذن من الجن» فأجبنا عن مسألتنا وافتنا في أيماننا، وذلك مما لا أجده في كتاب الله عز وجل ولا في سنة نبيه ﷺ، ولا أخبرنا الله به ولا رسوله كان علي يا أمير المؤمنين أن أجيبهم في مسألتهم وأفتيهم في أيمانهم؟

فقال المأمون لا ليس عليك إجابتهم ولا فتياهم.

فقلت: صدقت يا أمير المؤمنين لا يجوز لي ولا لغيري أن يقضي بينهم ولا يفتيهم إلا أن يكون الله قد أخبر عن ذلك في كتابه أو على لسان نبيه ﷺ، وإذا لم يجز هذا خلق من خلق الله فكيف يجوز الجواب عن علم الله، وهو مما لا يوجد في كتابه ولا في سنة نبيه، ولا أخبرنا الله به ولا رسوله، وقد أكذب الله بشرا على لسان أمير المؤمنين أطال الله بقاه فيما ادعاه من وجوب الجواب عليّ وفتوى من جهل يا مسألته وحمق في يمينه.

فقال: أحسنت أحسنت يا عبد العزيز.

فقال بشر: واحدة بواحدة يا أمير المؤمنين، سألني عبد العزيز أن أقول إن لله علما فلم أجبه، وسألته عن معنى علم الله فلم يجبني فقد استوينا في الحَيدة عن الجواب، ونخرج عن هذه المسألة إلى غيرها، وندعها على غير حجة تثبت لأحدنا على صاحبه فيها.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاءك إن بشرا قد أُفحِمَ وانقطع عن الجواب ودُحضت حجتُه وبقي بلا حجة يقيمها لهذا المذهب الذي كان يدعو الناس إليه، فلجأ إلى أن يسألني مسألة محالٍ يتحرَّ بها مني ليقول: «سألني عبد العزيز عن مسألة فلم أجبه، وسألته عن مسألة فلم يجبني عنها» وقد قال ذلك، وأنا وبشر يا أمير المؤمنين على غير السواء في مسألتنا، لأني سألته عما أخبر الله به وشهِدَ به لنفسه وشهدَت له به الملائكة، بقوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ١٦٦﴾ [النساء:١٦٦] فأخبرنا الله تعالى عن علمه وشهد به لنفسه وشهدت له به الملائكة وتعبَّد اللهُ عز وجل نبيَّه ﷺ وسائر الخلق بالإيمان به بقوله: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ﴾[الشورى:١٥] فوجب على نبيه ﷺ وعلى الخلق جميعا الإيمانُ بما أنزل الله من كتاب، وبشرٌ -يا أمير المؤمنين- يأبى أن يؤمنَ بذلك أو يقرَّ به أو

يصدقَ به. وسألني بشرٌ عن مسألةٍ سَتَرَ اللهُ علمَها عن ملائكته ورسله وأهلِ وِلايته جميعًا، وعني، وعن بِشرٍ، وعن سائر الخلق جميعًا، مِمَّن مضى وممن هو آت إلى يوم القيامة فلم يَعلَمها أحدٌ قبلَنا ولا يعلمُها أحدٌ بعدنا، فلم يكن لي أن أجيبه عن مسألته، وإنما يَدخُل النقضُ عليَّ يا أمير المؤمنين لو كان بشرٌ يعلم ما سألني عنه أو غيرُه من العلماء، وكنتُ أنا لا أعلَمُه، فأما إذا اجتمعنا جميعا أنا وبشر وسائرُ الخلقِ في جهل مسألة وقلةِ العلم بها، فليسَ الضَّرَرُ دَاخِلٌ عليَّ دُونِه، وهذه مسألة لا يحل لأحد أن يسألَ عنها، ولا يَحِلُّ لأحدٍ أن يجيب فيها لأن الله حرَّمَ ذلك عليهم.

قال عبد العزيز: فقال لي المأمون: أنتما في مسألتكما على غير السواء، وقد صح قولك في هذه المسألة يا عبد العزيز وَبَان ووضح، وظهرت حُجتك على بشر فيها.

قال عبد العزيز: ورأيتُ بِشرًا قد حَار وانقطع وضجَّ مِما في يدَيَّ، واستبان الحق ووضَح لأمير المؤمنين ولسائر من بحضرته.

[عودة إلى مبحث الخصوص والعموم]

فقلت: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاءك، أرجعُ إلى أول المسألة، وادَعُ

ذكر العلم[١] فأكسرُ قولَ بشرٍ وافضحُ مذهبه وأبطل قوله واحتجاجه.

فقال لي المأمون: قد أصبت يا عبد العزيز بتركك الكلامَ فيما قد قَطَع المجلسَ من غير أن يرجع إليك عن مسألتك فيه جواب، وقد وقفنا من قولك على ما يَلزَم بشرًا في هذه المسألة لو أجابك عن مسألتك، فهاتِ ما عندك من غير هذا.

قال عبد العزيز: فقلتُ: يا أميرَ المؤمنينَ -أطال الله بقاءك- يجب على كل من اكتال بمكيال أن يوفي به؟

قال: ذلك يلزمه.

فقلت: يا بشرُ، ألستَ تزعُم أن قوله: ﴿خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ لفظةٌ لا يخرجُ عنها شيءٌ، لأن «كل» كلمة تجمع الأشياء ولا تَدَعُ شيئًا يخرُجُ عنها، وكل شيء داخل فيها؟

فقال بشر: هكذا قلتُ وهكذا أقولُ، وهكذا هو عند الخَلقِ، ولستُ أرجعُ عنه بكثرة خُطَبِك وهَذَيانِك.

---

(١) أي الكلام في علم الله.

فقلت: أميرُ المؤمنينَ شاهدٌ عليك بهذا.

قال عبد العزيز: ثم قلت له: يا بِشرُ، قال الله عز وجل: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ۝٤١﴾ [طه:٤١]

وقال عز وجل: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾[آل عمران ٣٠]

وقال جل ذكره: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥٥﴾

[الأنعام:54]

وقال له عيسى عليه السلام: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَ﴾ [المائدة:١١٦] فقد أخبرَ اللهُ عز وجل في مواطن كثيرة من كتابه أن لله نفسًا، أفَتُقِرُّ يا بشرُ أن لله نفسًا كما أخبرنا عنها بهذه الأخبار كلها؟

قال: نعم.

فقلت له: قال الله تبارك وتعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾[آل عمران ١٨٥] أفتقولُ أنَّ نفسَ رب العالمين داخلةٌ في هذه النُّفوسِ التي تذوق الموت؟

فصاح المأمون بأعلى صوته -وكان جَوهري[١] الصوتِ-: معاذ الله، معاذ الله، معاذ الله.

فقلت أنا -ورفعت صوتي-: معاذَ الله معاذَ الله أن يكونَ كلامُ اللهِ داخلا في الأشياء المخلوقة، كما أن نفسَه ليسَت بداخلَةً في الأنفاس المَيِّتَه، وكلامُه خارج عن الأشياء المخلوقة كما أن نفسه خارجةٌ عن الأنفس الميتة.

قال بشر: يا أمير المؤمنين قد سألني فليَسمع كلامي، ولْيدعِ الصياح والضجيج.

فقال له: تكلم بما شئت.

قال: إن كانت «نفس» ضميرًا وتَوَهُّمًا، فهي خارجةٌ وليست بداخلةٍ في هذه النفوس.

فقلت له: كم ألقيْ إليك أني أقول بالخبر وأمسك عن علم ما سُتر عني، وإنما قلتُ إن لله نفسا كما أخبرنا، وقد أقررتَ بذلك، فلْتكن عندك على أي معنى شئت، وقُل هي داخلةٌ في هذه النفوس أم لا، وَدَعْ عنا كلام

---

[١] يجب أن تكون: جهوَري، بمعنى مرتفع.

الخَطَرات والوساوس.

فقال لي: أنت رجل مُتَعَنِّتٌ تجابُ عن مسألتك فتطلبُ غيرها، وليس عندي جواب غير هذا.

وانقطع.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين، قد كسرتُ قولَه في هذه المسألة بالقول الأول والقول الثاني في باب العلم، وكسرت قوله بقولِه، ودحضت حجته بحجته، وبَطَل ما كان يدعو إليه من بِدعتِه وضلالته، وبان لأمير المؤمنين فضيحةُ مذهبِه وفُحشُ قولِه.

ثم أقبل عليّ المأمون فقال لي: يا عبد العزيز قد وضَحَتْ حُجَّتُك، وبان قولُك، وانكسر قول بشرٍ، ونحتاج أن تشرَح هذه الأخبارَ التي في القرآن ومعانيها وما أراد الله عز وجل بها ليَسمَع من بحضرتِنا، فقد مرَّ اليوم أشياءٌ كثيرةٌ يحتاج من سمِعَها إلى معرفتها وفَهمِها.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل شرَّفَ العربَ وكرَّمَهم بأن أنزل القُرَان بلسانِهم وجعلَه مكتفيا على تبيانهم فقال عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [سورة الزخرف:٣].

وقال جل ثناؤه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف:٢]

وقال عز وجل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾[سورة الشعراء:١٩٢-١٩٥]

وقال عز وجل: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ٩٨﴾[سورة مريم:٩٧] فخصَّ اللهُ عز وجلَّ العربَ بفهمِه ومعرفتِه وفضلهم على غيرهم بعلم أخباره ومعاني ألفاظه وخصوصه وعمومه ومحكمه ومُبهَمِهِ، وخاطبهم بما عقلوه وعلموه، ولم يجهلوه وقبلوه ولم يدفعوه، وعرفوه ولم ينكروه، إذ كانوا قبل نزوله عليهم يتعاملون بمثل ذلك في خطابهم ولُغَاتِهِم وكلامِهم، فأنزَلَ اللهُ جل ذكره القُرَان على أربعة أخبار خاصة وعامة.

فمنها خبرٌ مخرَجُهُ مَخرَجُ الخُصُوصِ ومعناه معنى الخصوص.

ومنها خبر مخرجه مخرج العُمومِ ومعناه معنى العموم.

فهذان خبران مُحكَمَان لا ينصرِفان بإلحاد مُلحد.

ومنها خبرٌ مَخرَجُه مَخرجُ العُمومِ ومعناهُ معنى الخُصوص.

ومنها خبر مخرجه مَخرجُ الخصوص ومعناه معنى العموم.

ففي هذين الخبرين -يا أمير المؤمنين- دخلتِ الشبهةُ على مَن لا يعرفُ خاص القُرَان وعامّه.

فأما الخبرُ الذي مَخرَجُه العمومُ ومعناهُ معنى العُمومِ، فهو قول عز وجل: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ﴾[النمل:٩١] فَجَمَعَ هذا الخبرُ الخلقَ والأمرَ، ولم يُبقِ شيئا إلا وقد أتى عليه، لأن كل شيءٍ هو له، مما هو مخلوق وغير مخلوق، فهذا خبرٌ مَخرجُه مخرجُ العموم ومعناهُ معنى العُموم.

وأما الخبرُ الذي مَخرجُه مَخرجُ الخصوص ومعناه معني الخصوص، فهو قوله عز وجل: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ٧٢﴾[ص:٧١-٧٢] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٨ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ٥٩﴾[آل عمران:٥٩-٦٠] فكان مخرج الخبر لآدم عليه السلام مخرج الخصوص، ومعناه معنى الخصوص، وكذلك كان مخرج الخبر لعيسى عليه السلام مخرجه مخرج الخصوص ومعناه معنى الخصوص.

ثم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾[الحجرات:١٣]

والناسُ اسمٌ يجمَعُ آدمَ وعيسى ومَن بينَهُما ومَن بعدَهما، فَعَقَلَ المؤمنونَ عن الله عز وجل عند نزولِ هذا الخبر أنه لم يعنِ آدمَ وعيسى عليهما السلام في الناس الذين خلقهم من ذكر وأنثى، لأنه قد قدَّم ذلك الخبر الخاص في آدم وعيسى عليهما السلام، وكان مَخرَجُ اللفظِ عامًّا بهما وبغيرهما، ومعناه خاصًّا بالناس دونَهما.

وأما الخبَرَ الذي مَخرَجُه مَخرجُ الخُصوصِ ومعناه معنى العموم فهو قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ﴿٤٨﴾﴾[النجم:٤٩] [1] فكان مَخرَجُ الخبر خاصًّا ومعناه معنى العموم[2].

وأما الخَبَرُ الذي مخرجه مخرج العموم ومعناه الخصوص، فهو قوله تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾[الأعراف:١٥٦] فكان مخرج الخبر مخرج العموم ومعناه معنى الخصوص، فعقل المؤمنون عن الله تعالى عند نزول هذا الخبر أنه لم يعنِ إبليسَ فيمن تسمعُهُ الرَّحمَةُ لِمَا قَدَّمَ فيه مِن الخَبرِ الخاصِّ قبلَ ذلك، وهو قوله: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٣﴾﴾[ص:٨٥] فكانَ إبليسُ ومَن تبِعَه خارِجِينَ بهذا الخبر الخاص من

---

(١) الشِّعرى: اسم أحد النجوم.

(٢) أي يعم كل النجوم.

رحمة الله التي وسعت كل شيء، فصار معنى ذلك الخبرِ العام خاصًا لخروج إبليسَ ومن تبِعه من رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء، فلمَّا أنزل اللهُ عز وجل هذه الأربعةِ الأخبارِ، خَصَّ العَرَبَ بفَهمِها ومعرفة معانيها وألفاظِها وبخصوصِها وعمومها والخِطابِ بِها، ثم لم يدَعها أشباهًا على خلقه فيجد الملحدون السبيل إلى الإلحاد في صفاته والطعن على أخباره والتشبيه علي خلقه من غير العرب الذين عقَلوا عنه ما أراد بخطابه، حتى جعل فيها بيانًا ظاهرًا وعِلمًا واضحًا لا يخفى على من سمِعَه وتدبَّرَه وتفَهَّمَه من غير العرب، ممن لا يعرف الخاص، والعام، والمحكم والمُبهَم، تفضُّلًا مِنه وتكرمًا وإحسانًا إلى خلقِه وإثباتًا مِنهُ الحُجَّةَ على من ألحَدَ في كتابه وصفاته وما هو من ذاتِه.

فإذا أنزل الله تبارك وتعالى خبرا مَخرجُ لفظه خاصٌ ومعناه عامٌ، أو خبرا مخرج لفظه عام ومعناه خاص؛ لم يدعه الله إشكالًا على خلقِه حتى يجعلَ فيه أحَدَ بَيَانَين؛ إما أن يستثني من الجملة شيئا فيكونُ بيانًا للناس جميعًا، أو يُقَدِّمُ قبلَه خبرًا خاصًّا، فإذا أنزل بعده خبرًا عاما؛ لم يَتوهم أحدٌ من العلماء أنه عنى ما خصَّه في الخبر الذي قدَّمَه قبل نُزولِ العام، إذ كان قد خصه ونصه قبل ذلك.

قال عبد العزيز: فأما الخبر الذي ينزله على لفظ العموم ويَستثني من

الجملة ما لم يعنه في العموم، فهو قوله عز وجل في قصة نوح عليه السلام: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾[العنكبوت:١٤] فعقل المؤمنون عن الله عز وجل حين استثنى الخمسين سنة من الألف إن الألف لم يستكملها نوح عليه السماء في قومه أيام الطوفان، قال: فكان ابتداءُ اللفظِ عاما بالألف سنة، ومعناهُ خاصًّا بالاستثناء الخمسين سنة من الألف، ومثل هذا في القُرَان كثير، ولكني أختصرت من كل خبر مسألةً واحدةً ليقف مَن بحضرة أمير المؤمنين على ذلك كما أمَر.

فأما الخبُر الذي يُنزله على مخرج العمومِ وقد قدَّم قبلَه خبرًا خاصًا، فهو قولُه عز وجلَّ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[الأعراف:١٥٦] فكانَ مَخرج الخبرِ باللفظِ عاما، وكان معناه خاصًا لما قدَّم قبله من الخُصوص في إبليس ومن تبعه بقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٣﴾﴾[ص:٨٥] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي﴾[العنكبوت:٢٣] فعَقَل المؤمنونَ عن الله تعالى أنه لم يعن هؤلاء الذين قدَّم فيهم الأخبارَ الخاصَّة بخُروجِهِم عن الرحمة أنهم معمومون بالرحمةِ مع غيرِهم بهذا الخبر العام، وكذلك قال عز وجل في قصة لوط عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ

﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ٣٢﴾[العنكبوت:٣١-٣٢] وقال في موضع آخر: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ٣٣﴾[العنكبوت:٣٣] فخصَّ عزَّ وجلَّ المرأة بالهلاكِ وقدَّم فيها أخبارًا خاصة بذلك.

ثم أنزل عز وجل خبرا مَخرجه مخرج العموم ومعناه معنى الخصوص فقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ٣٤﴾[القمر:٣٤] فعقل المؤمنون عن الله عز وجل أنه لم يعن امرأة لوط بالنجاة لِما قدم فيها من الأخبار الخاصة بالهلاك.

وكذلك حين قدَّم إلينا عز وجل في نفسِه خبرا خاصا أنه حي لا يموت بقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾[الفرقان:٥٨] ثم أنزل خبرا مخرجه مخرج العموم ومعناه معنى الخصوص فقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ١٨٥﴾[سورة آل عمران:١٨٥] فعقل المؤمنون عن الله عز وجل أنه لم يعنِ نفسَه مع هذه النفوس الميتة لِما قدم إليهم من الخبر الخاص في نفسه أنه حي لا يموت.

وكذلك حين قدم إلينا في كتابه خبرا خاصا فقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا

﴿قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٠﴾ [النحل:٤٠] فدل على قوله باسمٍ معرفةٍ، وعلى الشيء باسمٍ نكرةٍ، فكانا شيئين مفترقين عند العرب وأهل اللغة، فقال: ﴿إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ﴾ ولم يقل «إذا أردناهما» وقال: ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ﴾ ولم يقل «أن نقول لهما» ففرق بين القول والشيء المخلوق والذي يقول له كن فيكون بالقول مخلوقا، ثم قال عز وجل: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ [سورة الأنعام:١٠٢] فعقل المؤمنون عن الله عز وجل عند نزول هذا الخبر العام أنه لم يعن كلامَه وقولَه في الأشياء المخلوقة؛ لِما قدَّم في ذلك من الخبر الخاص أن الأشياء المخلوقة إنما تكون بقوله.

وإنما غلط بشر ومن قال بقوله وهَلَكُوا وتاهوا وضلوا لجهلهم بالخاص والعام في القُرَان، وإنما شرَّف اللهُ العربَ وفضَّلها بمعرفتها بخاص القُرَان وعامه ومجمله ومبهمه.

فقال المأمون: أحسنت أحسنت يا عبد العزيز.

فقلت: يا أمير المؤمنين إن بشرا خالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وخالف إجماع أصحاب محمد صلى لله عليه وسلم.

فقال لي المأمون: خالف بشرٌ كتاب الله عز وجل، وسنة رسوله وإجماع أصحاب محمد صلى لله عليه وسلم!

قلتُ: نعم يا أمير المؤمنين، وأوقفك عليه الساعة.

قال: قل.

قلت: يا أمير المؤمنين إن اليهودَ ادَّعَت تحريمَ أشياءٍ لَم تُحَرَّمْ عليهم في التوراة وزعموا أنها في التوراة مُحَرَّمَة، فقال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [آل عمران:٩٣] فإذا أتوا بالتوراة فتُلِيَتْ عليهم فلم يجدوا ما ادعَوْه مُحَرَّمًا فيها عليهم، كان إمساكُ التوراة عند ذلك مكذبا لقولهم ومبطلا لدعواهم، وكذلك أقول لبشرٍ: أتلُ قراءنا بما قُلتَ، وإلاّ فإنَّ إمساكَ القُرَان عما تدعيه مكذبٌ لك، مُبطلٌ لدعواك.

وكذلك ننظر في سنة الرسول ﷺ فإن كان مَعَهُ سُنَّةٌ مِن رسولِ اللهِ ﷺ بما قال، وإلاّ كان إمساكُ السنة مُكذبٌ لقوله مبطل لدعواه، وهما الأصل الذي أصلناه بيننا وأشهَدنا أميرَ المؤمنينَ أطال الله بقاءه على أنفُسِنَا بِه وشرطنا على أنفسنا إسقاطَ كلِّ ما لا نجده في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

أما خلافُ أصحابِ محمدٍ ﷺ؛ فإنَّ أصحابَه اختلفوا في الحلال والحرام ومخارِج الأحكام، فلم يُخَطِّئ بعضُهم بعضًا، فهُم مِن أن يُكَفِّر

بعضُهم بعضا أبعد. وبشرٌ -يا أمير المؤمنين- ادعى على الأمة كَلِمَةً تأوَّلها بغير عِلمٍ مِنهُ بِمَعناها وبِمَا أراد الله عز وجل بها، ولا يجد لها في كتاب الله ما يَنُصُّها ولا ما يَدُلُّ على تأويلها، ثم زعم أن من خالفه عليها كافر حلالُ الدَّمِ، فأباح دمَ الأمَّة جميعًا على ذلك، فهو خارجٌ عن إجماعِ أصحابِ محمد ﷺ.

فقال بشر: قد خَطَبْتَ وتكلمتَ وهذَيتَ وتركتُكَ حتى تفرُغ، فما ادعيت إلا بنص التنزيل، ومعي من كتاب الله آيةٌ لا يتهيأُ لك معارضُتها ولا دفعُها، ولا التشبيه فيها، ولا الخُطَبُ عليها، كما فعلتَ في غيرها، وإنما أخرتُها ليكون انقضاءُ المجلس عليها وسفكَ دمِك بها.

فقلت له: هاتِها فأنا أُشهِدُ أميرَ المؤمنينَ على نفسي أني أول من يتبعُك عليها ويقولُ بها، ويرجِعُ عن قوله، ويكذب نفسه ويتوب إلى الله إن كان معك نص التنزيل، وكل من خالف نص التنزيل فهو كافر، ووالله ثم واللهِ لو اجتمعتِ الأنس والجن على ما قلتَ أن يأتوا به لم يقدروا أن يأتوا به ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

قال بشر: قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف:٣]

قال عبد العزيز: فقلت له: والله لا أعلم أحدا من المؤمنين إلا وهو

يؤمن بهذا ويقرُّ به، ويقول: إن الله جعل القُرَان عربيًا، ولا يُخالف ذلك، فأيُّ شيءٍ في هذا من الحجة لك والدليلِ على خلقه؟

فقال بشر: وهل في الخليقة أحد يشك في هذا أو يخالفُ على أن معنى جعلناه: خلقناه؟

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين ذهب نص التنزيل الذي قال أنَّه يأتي به ورجعنا إلى معناه وتأويله.

فقال بشر: ما هذا تأويلٌ ولا تفسيرٌ ولا معنى، ولا هو إلا نص التنزيل.

قال عبد العزيز: فأقبلتُ على المأمون فقلت: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاءك، إن القُرَان مُنَزَّلٌ بلسانِكَ وبلسان قومِك، وأنت أفهمُ أهل الأرض بلُغة العرب ومعاني كلامها، وبِشرٌ رجل من أبناء الأعاجم يتأوَّلُ كتاب الله على غير ما عناه الله عز وجل، ويحرفه عن مواضعه ويبدل معانيه، ويقول ما تنكره العربُ ولا تَتَعارفُه في كلامها ولُغاتِها، وأنت أعلم خلق الله بلُغة قومِك، وإنما يُكَفِّرُ بشرٌ الناس ويُبيحُ دماءَهم بتأويل القُرَان.

فجعل بشر يقول: جاء الحق وزهق الباطل، تَروحُ يا عبد العزيز إلى الكلام والخطب والاستغاثة بأمير المؤمنين -أطال الله بقاه- لينقطع المجلس، قال الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى

ثم ضَرَبَ بشرٌ يده على فخذي وقال: أقبِل عليَّ فقد أتيتُ بما لا تقدِر على دفعه ولا على التشبيه فيه لينقطع المجلسُ بثباتِ الحُجَّةِ عليكَ، وإيجابِ العقوبة عليك، فإن يكن عندك شيء تتكلم به، وإلا فقد قطع اللهُ مقالَك وأدحَض حُجتك.

وجَعَلَ يصيحُ: فَرَّحناك في أول المجلس وأطمعناك حتى انبسطت في الكلام وتوهمتَ أنك قد قدرت على ما أردتَ فأين كلامك وأين احتجاجك؟ انقطع ذلك، وجاء ما يُخرِسُ اللسان ويُذهِبُ بالعَقلِ ويُحِلُّ الدمَ.

قال عبد العزيز: فأقبل عليَّ المأمونُ وقال: يا عبد العزيز مالَك قد أمسكتَ؟ أجبه إن كان عندك جواب المسألة.

فقلت: ليس يدعني يا أميرَ المؤمنين أكلمُه من ضجيجه وصياحِه، فإن أمسَك؛ تكلمتُ وأجبتُه وكسرتُ قوله بإذن الله عز وجل، وإن أراد أن يهذي ويتروَّحَ إلى قطع المجلس لم أتكلم، وكان أمير المؤمنين -أطال الله- بقاه أعلا عينا بما يراه.

فصاح به المأمونُ: أمسِك وأسمع الجوابَ منه عما سألت.

قال عبد العزيز: فأمسَك.

فقال لي المأمون: تكلَّم يا عبد العزيز بما تريد.

[معنى «جعل» وورطة المريسي]

فقلت: يا أمير المؤمنين -أطال الله بقاءك- ما خفيَ عليك حرفُ واحد مما جرى اليوم في مجلسك ولنِعم الحاكمُ أنتَ جزاك الله عن رعيتك أفضل الجزاء، وبشرٌ يقول الشيء على ما يخطر بباله من غيرِ عِلم، ولا حقيقةَ لقوله، فإن رأى أميرُ المؤمنين أن يتحَفظ علينا ألفاظنا وما يجري بيننا في هذه المسألة ويَشهَدَ علينا بما نقول، ويطالبُ كلًّ منا صاحبَه بإقامة الشاهد على ما يقول، من الكتاب والسنة؛ فعل.

فقال: أنا أفعل ذلك منذُ اليوم.

قال عبد العزيز: فأقبلت على بشر فقلت له: أخبِرني عن «جَعَلَ» ، هذا حرفٌ مُحكَمٌ لا يحتمل غيرَ الخَلقِ؟

فقال بشر: نعم هو حرف مُحكَمٌ لا يحتَمِلُ معنى غير الخلق، وما بين «جعل» و«خلق» فرقٌ عندي ولا عندَ غيري من سائر الناس، ولا عند أحدٍ من العرب، ولا من العجم إلا هذا، ولا يتعارفُ الناسُ ولا يعقلون غير هذا من كلامهم ولغاتهم، سواءٌ عندهم قالوا: «خلق» أو: «جعل».

فقلتُ لبشرٍ: أخبرني عن نفسك ودع ذِكرَ العربِ وسائرِ الناس فأنا مِن الناس ومِن الخَلق ومِنَ العَرَبِ أخالفُك على هذا، وكذلك سائر العرب تخالفك.

فقال بشر: هذا باطل منك ودعوى تدعيها على العرب وغيرِهم، وليس يُخالف على هذا أحد من خلق الله غيرَك خوفًا على نفسِكَ مما هو نازِلٌ بك لا مَحَالة.

قال عبد العزيز: فقلت له: أخبِرنِي عن إجماع الخلق بزعمك على أنَّ «جَعَلَ» و«خلق» واحدٌ لا فرق بينهما، في هذا الحرف وحده؟ أو في سائر القُرَان من «جَعَلَ»؟

قال: بل في سائرِ القرآن، وفي سائر الكلامِ والأخبَار والأشعار.

قال عبد العزيز: فقلت: قد حفظ عليك أميرُ المؤمنين ما قُلتَ وشهِد به عليك.

فقال بشر: أنا أُعيدُ عليكَ هذا القولَ متى سألتَني عنه، ولا أُخَالِفُه، ولا أرجِعُ عنه.

قال عبد العزيز: فقلت لبشرٍ: زعمتَ أن معنى ﴿جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا

عَرَبِيًّا﴾: خلقناه قرآنا عربيًا.

قال: نعم هكذا قلت، وهكذا أقول أبدًا.

فقلتُ له: أخبرني أاللهُ عز وجل تفرَّدَ بخَلقِ القُرَان أو شاركه في خلقه أحد غيره؟

قال: بل الله خلقه وتفرد بخلقه ولم يشاركه في خلقه أحد.

قال عبد العزيز: فقلت له: أخبرني عمَّن قالَ: «إن بعض وَلَدِ آدمَ خَلَقوا القُرَان مِن دُونِ اللهِ» أمؤمن هو أم كافر؟

فقال بشر: بل كافر حلال الدم.

فقُلتُ: وأنا أقول أيضًا هكذا، إنَّه كافرٌ حلالُ الدَّمِ.

قلتُ: فأخبِرنِي عمَّن قال مِن أن التَّوراةَ خلقها اليهودُ مِن دُونِ اللهِ تعالى، أمؤمن هو أم كافر؟

قال: بل كافر حلال الدم.

قلتُ: وأنا أقول هكذا أيضا، فأخبرني عمن قال: إن الله قال لبني آدم لا يخلقون الله، وقال في موضع آخر «وقد خلقتم الله» أمؤمن هو أم كافر؟

قال: بل كافر حلال الدم.

قلتُ: وأنا أقول أيضا مثلَ ذلك.

فأخبرني يا بشرُ، أليس اللهَ خلق الخلقَ كلَّهُم؟

قال: بلى.

قلت: فهل شارَكَه في خلقهم أحدٌ؟

قال: لا.

قلت: فمن قال إن بعضَ بني آدمَ خَلَقُوا اللهَ، أمؤمن هو أم كافر؟

قال: بل كافر حلال الدم.

قلت: وأنا هكذا أقول.

قال بشر: قد قعدتَ تمتَحِنُنِي وتُشغِلُني حتى يؤذِّنَ بالظهر وينقطَع المجلسُ رجاءَ أن تنصرفَ منه سالِمًا، وهذا مالا يكون عندَكَ جوابٌ لِمَسألَتِي، وإلا فقد انقَطَعَ الكلامُ، وأي شيء هذه الخرافات؟

قال عبد العزيز: فقلتُ يا أميرَ المُؤمنينَ ليس يُنصِفُني فأمرْهُ أن يجيبَنِي عمَّا أسأله عنه، فإن الذي بقِيَ أيسره، ثم أجِيبُه عن مسألَتِه وعن

كلامِه.

فقال له المأمونُ: أجِبْه عن كلامِه وما يسألك عنه.

قال: الساعةُ يؤذَّنُ بالصلاة وينقطعُ المجلس.

فقال المأمون: نؤَخِّرُ الأذانُ بالصلاةِ إلى آخِرِ الوَقتِ، فإن احتَجتُمَا إلى أن تجلسا بعد الصلاةِ لتَمامِ الكلام جلستُ لكما حتى تفرَغا.

قال عبد العزيز: ثم أقبَل عليَّ المأمونُ فقال: سله يا عبد العزيز عما تريد، ولا تَدَعْ شيئا مما تحتاجُ إليهِ إلا ذكرته فإني مُتَحَفِّظٌ عليكُما جميعَ ما يجري بينكما، وشاهِدٌ به عليكُما.

فقلت له: جزاك الله يا أمير المؤمنين عني يا أمير المؤمنين خاصةً وعن رعيَّتِكَ عامَّةً أفضل الجزاء، فقد جلست منا اليوم مجلس الإمام العادل، وأحسنتَ إليَّ حين رأيتَني جَزِعًا فسكَّنْتَ رَوعَتِي وآنستَ وحشتي وبسطت لِسَانِي بِحُجَّتي، وتابعتَ الحق حين ظَهَرَ لك، ووافقته ونصرت أهله، وشهِدت لي بثباتِ الحُجة، ودفعتَ أهلَ الباطل حين زهَق واضمحَلَّ وبانَت فضيحتُه، وشهِدتَ على بُطلانِه، وأنصفتَ في مجلسِكَ، وكان ذلك كلَّه منك بتوفيق الله وتأييده إياك فله الحمد والشكر على ما أبلاكَ وأبلى رعيَّتَكَ فيكَ، فجزاك اللهُ أفضل ما جزى أحدًا من الأئمة عن رعيته.

فقال لي المأمون: قد أبلغْتَ يا عبدَ العزيزِ في القَولِ والشُّكرِ ولكَ الزيادَةُ مِمَّا ابتدأناك به، فارجع إلى مسألة بشر عما تريد.

قال عبد العزيز: فأقبلتُ على بشرٍ فقلت: أخبِرِني عمَّن زَعم إن بعض بني آدم خَلقوا الملائكةَ مِن دون الله تعالى أمؤمن هو أم كافر؟

قال: بل كافر حلال الدم.

فقلت: وأنا أقول هكذا أيضا.

قلت: أخبِرِني عمن زعم أن بعضَ بني آدم خلقوا للهِ شُركاءَ، أمؤمن هو أم كافر؟

قال: بل كافر حلال الدم.

فقلت: وأنا أقول هكذا.

قلت: فأخبرني عمن زعم أنَّ بعض بني آدم خلقوا لله أندادًا، أمؤمن هو أم كافر؟

فقال: بل كافر حلال الدم.

فقلت: هكذا أقول أيضًا.

قال عبد العزيز: فأقبلتُ على المأمونِ فقُلتُ: يا أمير المؤمنين، قد أقرَّ بشرٌ أنه كافر حلال الدم، وكلُّ مَن قال بقَوله ووافقه على مذهبه.

ثم ندمت على قولي «وكل من قال بقوله ووافقه على مذهبه» وعلمتُ أني قد أخطأت[1]، فأطرق المأمونُ إطراقَ مُغضَبٍ.

ونظر إليه بشر فقال: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاءك، يكفرنا ويحل دمانا بحضرتك وفي مجلسك بلا حجة ظهرت، وإنما شبّه ذلك ليقول هذا.

قال عبد العزيز: فقلت له: شَهِدَ عليكَ أميرُ المُؤمِنينَ بما قُلت.

فقال لي المأمون: لقد افحشتَ القولَ وأعظمتَه واستشهدتني على ما لم أسمعْهُ، ولَم أشهد بِه على بشرٍ، ولا على أحد يقولُ بقولِه.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أميرَ المؤمنينَ اسمع قولي، فإن كنتُ قلتُ حقًا كان بِشر قد أكفَرَ نفسَه ومن قال بمقالَتِهِ وأحلَّ دَمَهُ ودماءَهُم وانتزعتُ على كل حرفٍ مِن كلامي آيةً مِن كتابِ الله، وإلاّ فَدَمِي حلالٌ ولْيَأمر أميرُ المؤمنينَ بضربِ عُنُقِي في هذه الساعةَ على رؤوس الأشهاد، وإن أتيتُ على ما قلتُ ولَفَظتُ به بنص التنزيل في كل لفظةٍ وأقمتُ الشاهد على بشرٍ من

(١) لأن المأمون يقول بقوله

كتاب الله؛ وسِعَنِي عدلُ أمير المؤمنين.

قال: فقال لي: هاتِ ما عندك ولا تُطِل الكلامَ بغير حجة.

قال عبد العزيز: فقلت: قال الله عز وجل: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٩١﴾ [النحل:٩١] فزعم بشر يا امير المؤمنين أن معنى ﴿وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ﴾: وقد خلقتم الله عليكم كفيلا، لا معنى لذلك غيره، وأنه ومن خالَفه وسائر العرب والعجم يقولون هذا[١] [٢] ثم قال: «من قال هذا فهو كافر حلال الدم» وقد كذب في القول الأول، وصدق في قوله الثاني أن من قال هذا حلال الدم بإجماع الأمة.

وقال عز وجل: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةً لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ [البقرة:٢٢٤] فزعم بشرٌ أن معنى: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ﴾ ولا تخلُقُوا الله عُرضة لأيمانكم، لا معنى له عنده ولا عند من قال بقوله ومن خالَفه ولا عند سائر الخلق جميعًا

[١] في الأصول الكلام فيه زيادة غير مفهومة المعنى، فصغتها بما يوافق الكلام.

(٢) أي أن بشر ادعى الإجماع، إجماع من وافقه في خلق القرآن ومن خالفه أيضا في أن جعل معناها خلق.

غير هذا أن الله قال لبني آدم «ولا تخلقوا الله» ثم قال: «من قال هذا فهو كافر حلال الدم» وأميرُ المؤمنينَ يشهَدُ عليهِ بهذا اللفظِ، وقد كَذَبَ في قولِ: «إن معنى ولا تجعلوا ولا تخلقوا الله» وصدق في قوله، «إن من قال هذا فهو كافر حلال الدم» بقوله وقولي وقول الناس جميعا.

فقال المأمون: ما أقبحَ هذا وأشنعَه وأعظمَ القول به.

فقلت: قال الله سبحانه: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ٥٧﴾ [النحل:٥٧] فزعم بشرٌ -يا أمير المؤمنين- أن بني آدم يخلقونَ لله البنات -سبحانه- ويخبِرُ بذلِكَ عن اللهِ عز وجل، وأنه هو قاله وشهدَ به على نفسه، ثم قال: «من قال هذا فهو كافر حلال الدم» وقد صدق في قوله الأخير وكذب في قوله الأوَّل، ومن قال هذا فهو كافر حلال الدم بإجماع الأمة.

قلت: وقال عز وجل: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ﴾[إبراهيم:٣٠] فزعم بشر -يا أمير المؤمنين- أن معنى ﴿وَجَعَلُواْ﴾: وخلقوا، ولا معنى له عنده وعند من قال بقوله غير هذا، فزعم عن الله عز وجل أنه قال «وخلقوا لله أندادا» ثم قال: «من قال هذا فهو كافر حلال الدم» فقد كذب بشر في قوله الأول، وصدق في قوله أن من قال هذا فهو كافر حلال الدم بإجماع الأمَّة.

قلت: وقال الله عز وجل: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ﴾[الأنعام:١٠٠] فزعم بشر أن معنى قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ﴾ وخلقوا لله شركاء الجن، لا معنى له عنده ولا عند من قال بقوله ومن خالفه ولا عند سائر الناس إلا هذا، فزعم بشر أن الله عز وجل أخبر أنهم يخلُقونَ له شُركاء الجن، ثم قال: «من قال هذا فهو كافر حلال الدم» وقد كذب في قوله «إن معنى وجعلوا وخلقوا» وصدق في قوله «إن من قال هذا فهو كافر حلال الدم بقوله وقول الناس جميعا»

قلت: قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ﴾[الرعد:٣٣] فزعم بشرٌ -يا أمير المؤمنين- أن معنى ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ وخلقوا لله شركاء، لا معنى له عنده وعند من قال بقوله ومن خالفه ولا عند العرب والعجم إلا هذا المعنى، فزعم أن الله أخبر أنهم خَلَقُوا لهُ شُركاء، وكذب بشر -يا أمير المؤمنين- وقال الباطلَ والزور، ولقد نفى الله تعالى ذلك وأبطله، وأخبر أنه لا يعلم من هذا شيئا، وأخبرنا أنه من قال ذلك كافر حلال الدم بقوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ﴾[الرعد:٣٣] كما قال بشر ﴿بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٤﴾

[الرعد:٣٣]

قلت: قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَا ءَاتَىٰهُمَا ۚ﴾ [الأعراف:١٩٠] فزعم بشر أن معنى: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَا ءَاتَىٰهُمَا ۚ﴾ خلقا له شركاء، لا معنى له عنده ومن قال بقوله وعند الناس جميعا غير هذا، ثم قال: «من قال هذا فهو كافر حلال الدم» فكَذب في الأول، وصدق في الآخر أنه كافر حلال الدم بإجماع الأمة.

قلت: وقال عز وجل: ﴿أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [الرعد:١٦] فزعم بشر أن معنى ﴿أَمْ جَعَلُواْ﴾ [الرعد:١٦] أم خلقوا، لا معنى له عنده وعند من قال بقوله وعند الناس جميعا غير هذا، وزعم أن من قال هذا كافر حلال الدم، وكذب في قوله الأول، وصدق في الآخِر أنه كافر حلال الدم كافر بإجماع الأمة.

قلت: قال عز وجل: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف:١٩] فزعم بشر إن معنى قوله، ﴿وجعلوا الملائكة﴾: وخلقوا الملائكة، ثم قال: من قال به كافر حلال الدم، فقد كذب في الأول، وصدق في أن من قال هذا فهو كافر حلال الدم بإجماع الأمة.

قلت: وقال عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ يَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾[الأنعام:٩١] فزعم بِشر أن معنى ﴿يَجۡعَلُونَهُۥ﴾ يخلقونه، يعني أن اليهود خلقت التوراة، ومعنى خلقُ التوراةِ خلقُ كلام الله، فزعم أن اليهود خلقت كلام الله تعالى وأنه لا معنى لذلك عنده ولا عند غيره ومن قال بقوله وعند سائر العرب والعجم غير ذلك، ثم قال: «من قال هذا فهو كافر حلال الدم» فكذب في الأول، وصدق في الآخر أنه كافر حلال الدم.

قلت: ثم قال الله عز وجل: ﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ٩١﴾ [الحجر:٩٠-٩١] فزعم بشر أن معنى قوله ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ﴾ الذين خلقوا القُرَان عضين، ثم قال: من قال هذا فهو كافر حلال الدم، وقد كذب في قوله «إن المقتسمين خلقوا القُرَان» وصدق في قوله «إن من قال هذا فهو كافر حلال الدم بإجماع الأمة»

قال عبد العزيز: فأقبل عليَّ المأمونُ فقال: حسبُك يا عبد العزيز، قد أقر بشر على نفسه بالكفر وإحلال الدم، وأشهد على نفسِه بذلك وقد

صدقتَ في كل ما قلت، ولكنه قال ما قال وهو لا يعقِلُ ولا يعلم ما عليه في ذلك، وهذا شيء يلزمُه في نفسِه خاصة، ولا يلزم غيرَه ممن لا يقر بمثل ما أقر به ولا يحكم على نفسه بمِثل ما حَكم به بشر على نفسه.

فقلت: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاءك، إنما قد خاطبت أميرَ المؤمنين بما قد حصل في صدري، وأقر به بشرٌ واشهَدَ أميرَ المؤمنينَ على نفسه به، وعلمتُ أن أمير المؤمنين قد حفظ عليه كلامه كلَّه، ولولا ذلكَ ما اجترأتُ على ذلك.

فقال المأمون: كنت تقصِدُ بشرًا وحدَه بالكلامِ والمُخاطبة دون سائر الناس؟

قلت: لم يدَعني، جعلتُ أسألُه في خاصةِ نفسِه؛ فيقول: «هذا قولي وقولُ سائر الناس، وقول العرب والعجم» فأجبتُه على حسب كلامه، وقد صَدَقَ أميرُ المؤمنين، هذا يلزم من أقرَّ به دونَ غيره، إلا من قال بمثل قوله وأقر بمثل ما أقر به، وهذا الذي عنيت بقولي الأول حين قلت: «ومن قال بقوله ووافقه على مذهبه»

فقال: قد أحسنت يا عبد العزيز الانتزاع[١].

ثم أقبل عليَّ المأمونُ فقال: يا عبد العزيز تكلم في بيان هذا، واذكر الجَعْلَ والخَلَقَ وفرِّقْ بينهما واشرح ذلك ليقف عليه من بحضرتنا ويعرفَه.

فقلت: نعم يا أمير المؤمنين -أطال الله بقاءك- ولكن إن رأيتَ أن تأذن لي فأقول قبل البيان والشرح أشياءً في هذا المعنى مما أكسِرُ به قول بشر، وأدحَضُ به حجتَه، وأفضح به مذهبه، وأبطل به اعتقاده.

فقال: افعل ولا تُطول بنا المجلس.

فقلت: يا أمير المؤمنين إنما هو شيء أُدَرِّسُه درسًا يا أمير المؤمنين.

قال: قل ما تريد، ولا تخاطب بشرًا، أقبِل عليَّ ودعه.

قلتُ: قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾[الإسراء:٢٢]

وقال تعالى في موضع آخر لنبيه كلفه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ

(١) اي الخروج مما قلتَ آنفا مما يلزم منه تكفير المأمون

﴿فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ٣٩﴾ [الإسراء:٣٩]

فزعهم بشرٌ -يا أمير المؤمنين- أن اللهَ قال لنبيِّه «لا تخلُق مع اللهِ إلهًا آخرَ» فمَن أقبَحُ قولًا مِن هذا أو أفحشُ منه؟!

وقال الله عز وجل لنبيه عليه السلام: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾[الإسراء:٢٩] فزعم بشرٌ أن الله قال لنبيه ولا تخلق يدك، فَزَعَمَ أن اللهَ خلقه وبعثه رسولا وليس له يَدٌ، ثم خاطبه بعد الرسالة فقال: «ولا تخلق يدك» واللهُ قد خَلَقَه خلقًا سَوِيًّا، وما أقبحَ هذا القول وأشنَعَه من قائله.

وقال اللهُ في قصة موسى ﷺ وفرعون، وقول فرعون له: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ٢٩﴾ [سورة الشعراء:٢٩] فزعم بشر أن فرعون قال لموسى وهو نبي مبعوث إليه: «لأخلقنَّك» فما أقبح هذا وأشنعه وأبيَنَ كسرَه.

وقال الله عز وجل: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾[النور:٦٣] فزعم بشرٌ أن الله قال لخلقه: «لا تخلقوا دعاء الرسول بينكم» ما أقبحَ هذا من قولٍ وأدحَضَه.

وقال الله: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ

فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝﴾[القصص:٧] فالله يأمُرُ بعد ولادته والرَّضاع له وأن تلقيه في اليم، وبعدها أن يَرُدَّه إليها ويجعَلَه مِن المرسلين، وبشرٌ يزعُمُ أنه وعَدَها أن يَرُدَّه إليها ويخلقَه، وهذا ما لا يعقِلُه الناسُ، كيف يخلقُه وهو مَخلوقٌ.

وقال عز وجل: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝﴾[القصص:٥] وزعم بشرٌ أنه يريد أن يَمُنَّ على الذين استُضعِفُوا في الأرض ويخلُقَهُم، وهم مخلوقون مستضعفون في الأرض، هذا ما لا يعقِلُه العرب والعجم.

وقال الله: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ﴾[ص:٢٦] فخاطَبَه بعد خلقِه وبعدَ فَهمِه، فزعم بشرٌ أنّهَ تعالى قال لداود: «إنا خلقناك خليفة في الأرض» وهذا مما لو خُوطِبَ بِه داودَ مَا عقَله.

وقال الله مخبرا عن دعاء إبراهيم وإسماعيل حين قالا: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾[البقرة:١٢٨] فأخبَرَ أنَّهُما دَعَوا ربهما وهُما مخلوقان، وزعم بشر أنهما دعوا ربهما إن يخلقهما مسلمين، بعد أن كان قد خلقهما.

وقال الله عز وجل مخبِرًا عن دُعاء إبراهيمَ وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ

﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم:٣٥] وقد كانت مكة مخلوقة قبل آدم عليه السلام وقبل إبراهيم، فكيف يدعو إبراهيم بخلقِها وهذا مما لا يعقِله الناس.

وقال الله عز وجل: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المائدة:١٠٣] فأخبَرَ اللهُ أنه ما جعل ذلك كلَّه، وزعم بشرٌ أن الله ما خلق البحيرةَ ولا السائبةَ ولا الوصيلةَ ولا الحامِ، وإنما خلقهما الكُفَّارُ مِن دونِ الله، ومَن قال هذا فقد كفر بالله عز وجل.

[الفرق بين الجعل والخلق، ومسألة الفصل والوصل في القرآن]

قال عبد العزيز: فأقبل عليَّ المأمون فقال: حسبُك يا عبدَ العزيز، فقد ثبتت حجتك في هذه المسألة كتبيانها في المسألةِ الأُولَى، وانكسر قولُ بِشرٍ فيها، وبَطَل دَعواه، فارجع إلى بيان ما قد انتزعتَ به واشرحه واذكر معانيه وما أراد الله به، وما هو مَن الجَعْلِ مخلوقٌ وما هو غيرُ مخلوقٍ، وبيانَ الأعلام والشواهدِ، وما هو مخلوقٌ، وما هو غيرُ مخلوقٍ، وما يتعامَلُ به العربُ في لُغَاتِها وما يُفَرِّقُ به بين الجَعلَين في كلامِها؛ ليسمع مَن في المجلس ذلك،

فيقفوا على مذهب العرب في ذلك ومعنى ما أراده الله عز وجل بقوله في ذلك.

فقلت: يا أمير المؤمنين، إن ﴿جَعَلَ﴾ في كتاب الله عز وجل يحتمل[١] معنيين عند العرب، معنى «خَلَقَ» ومعنى «صَيَّرَ» غيرَ خَلَقَ، فلما كانَ «خَلَقَ» حرفًا مُحكَمًا لا يحتمل معنى غير الخلق ولم يكن من صناعة العَبَادِ؛ لم يتعبَّدِ اللهُ به العِبَادَ فيقول لهم: «اخلقوا» أو «لا تخلقوا» إذ كان الخَلق ليس من صناعة المخلوقين وكان من شغل الخالق سبحانه وتعالى.

ولما كان «جعل» على معنى «صَيَّر» لا على معنى الخلق؛ خاطَبَ اللهُ بِهِ العِبادَ بالأمرِ والنهي فقال: «اجعلوا» و«لا تجعلوا» ولَمَّا كانَ جَعَلَ كلمةً تحتمل معنيين، معنى «خلق» ومعنى «صيَّر»؛ لم يَدَعِ اللهُ في ذلك اشتباهًا على خلقه ولَبسا على عباده فيُلحد الملحدون في ذلك ويشبهون على خلقه كما فعل بشر وأصحابُه، حتى جعل على كل كلمة علما ودليلا فرَّقَ بِهِ بين الجَعْلِ الذي يكونُ على معنى الخَلق، وبين الجَعْل الذي يكون على معنى التَّصيير.

فأما الجعل الذي هو على معنى الخَلقِ فإن الله عز وجل جَعَلَهُ مِن

(١) بالتذكير لأن ﴿جعل﴾ فعل

القول المُفَصَّلِ وأنزل القُرَان به مُفَصَّلًا[١] وهو بَيَانٌ لقوم يفقَهون.

والقولُ المُفَصَّل يَستغنِي به السَّامِعُ إذا أُخبِرَ به قبلَ أن تُوصَلَ الكلمةُ بغيرها من الكلام إذ كانت قائمة بذاتها تدل على معناها، فمن ذلك قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۝١﴾ [الأنعام:١]

فسواء عند العرب قال «وجعل» أو قال «وخلق» لأن العرب قد علمت أنه أراد بهذا الجعل: الخلق، لأنه أنزله من القول المفصل[٢].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل:٧٢] فعقلت العرب عنه أن معنى هذا: «وخلق لكم» إذ كان هذا قولا مُفَصَّلًا، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [سورة النحل:٧٨] فعقَلت العربُ عنه أنه أراد بهذا الجَعلِ: الخلقَ، إذ كان من القول المفصل، وسواءٌ

---

(١) أي كلمة «جعل» مستقلة، كما لو قلنا «الله جعل الأرض» أي خلقها، وهذا مِن المفصل، لأن الجملة تمت بدون حاجة لإضافة، أما الموصل فهو وصل كلمة بالمجعول لا تتم الجملة إلا بها، ويتغير المعنى بدونها كما لو قلنا «الله جعل الأرض خضراء» هذا من الموصَّل، لأن كلمة السماء وصلت بها كلمة خضراء، وبدون الكلمة الموصولة يتغير معنى الجملة، فقلنا هذا موصول، وسيأتي بيان أكثر من الشيخ.

(٢) فلو كان «جعل الظلمات كثيرة» كان من الموصَّل.

عندها قال «خلق» أو «جعل» لأنها قد علِمَت ما أراده وما عنى، ومثلُ هذا في القُرَان كثيرٌ جدا يا أمير المؤمنين، فهذا وما كان على مِثَالِه مِنَ القَولِ المُفَصَّل الذي يستغني المخاطَبُ بِه والسامِعُ لَه بِكُلِّ كلمة عمَّا بعدها.

وأما «جعل» الذي هو بمعنى التصيير الذي هو غير الخلق فإن الله عز وجل أنزله من القول المُوَصَّل الذي لا يدري المُخاطَبُ ما أراد المخاطِب حتى يصل الكلمة بكلمة بعدها فيَعلم ما أرادَ بها، وإن تَرَكَهَا مُفَصَّلَةً لم يصلْها بغيرها من الكلام لم يعقل السامع لها ما أراد بها ولم يفهمها ولم يقف على ما عنى بها حتى يصلها بغيرها[١].

فمِن ذلك قول الله عز وجل: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[ص:٢٦] فلو قال: «إنا جعلناك» ولم يصلها بما بعدها؛ لم يعقل داود، ولا أحدٌ ممن سمع هذا الخطابَ ما أراد الله به ولا ما عنى بقوله، لأنه خاطَبَه بهذا القول وهو مخلوقٌ، فَلَمَّا وصلها بـ«خليفة في الأرض» عَقَلَ داود وكلُّ مَن سمع هذا الخطاب ما أراد الله بقوله وما عنى به.

---

(١) كذلك قول الله تعالى ﴿هو الذي في السماء إله وفي الأرض إله﴾ فقد وصل «في السماء» بكلمة «اله» ووصل «في الأرض» بكلمة «اله» فإن قيل «إن الله في الأرض» اختلف المعنى وفسد لأنها من الموصل، فلابد من قول «الله في الأرض إله»

وكذلك حين قال عز وجل لأم موسى: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص:٧] فلو لم يصل «جاعلوه» بـ«المرسلين» لم تعقل أم موسى ما خاطبها به ولا ما عنى بقوله، إذ كان خلق موسى عليه السلام قد تقدم ردَّه إليها، فلما وَصَلَ الكلمةَ بـ«المُرسلين»؛ عقلت أم موسى ما أراد بخطابها.

وكذلك قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف:١٤٣] وقد كان الجَبَلُ من قبل أن يتجلَّى له مخلوقًا، فَوصل الجَعْلَ بِـ«دكا»، ولو لم يَصِله لم يعقل السامع له ما أراد الله بقوله.

وكذلك قوله: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة:١٢٨] وقد كانا قبلَ دعوتِهما مخلوقَيْن، فوصل ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ ولو لم يصل الكلمة وفصلها، فقال ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ﴾؛ لم يعقِل أحدٌ مِمَّن سّمِعَ ما أرادَ بدَعوتِهما، فلما وصلها بـ«مُسلمَين» علم كل من سمع ذلك ما أراد بدعوتِهما.

وكذلك قول إبراهيم: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة:١٢٦] فوصله بـ«ءَامِنًا » ولو لم يصله بـ «ءَامِنًا»؛ ما عقل أحد ممن سمع ذلك ما عنا

بدعوته، إذ كان بلد مكة مخلوقًا قبل ذلك، فلما وَصل بـ«ءَامِنًا» عقل السامع لذلك ما أراد إبراهيمُ عليه السلام بدعوته، ومثل هذا كثير في القُرَان جدا يا أمير المؤمنين، والذي تتعارفُه العرب وتتعاملُ به في لُغَاتِهَا وخِطَابِهَا ومعنى كلامِها ومخارجِ ألفاظِهَا وهو الذي جَرَت به سُنَّةُ اللهِ عز وجل في كتابه، إذ كان إنما أُنزِلَ بلسانها واكتُتِبَ على تِبيانها، فخاطبهم اللهُ عزَّ وجلَّ بما عَقَلوه وعرفوه ولم ينكروه ولم يكونوا يعرفون سواه، وهو القول المُوَصَّل والمُفَصَّل.

فأرجعُ أنا وبشر يا أمير المؤمنين فيما اختلفنا فيه من قول الله عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[الزخرف:٣] وإلى سُنَّةِ اللهِ في كِتابِه في الجَعلَيْنِ جميعًا، وإلى سنة العرب أيضا، وما تتعارفُه وتتعاملُ به، فإن كان من القول المُوصل؛ فهو كما قلتُ أنا إن الله جعله قرآنا عربيا بأن صيره عربيا أنزله بلغة العرب ولسانها، ولم يصيِّره أعجميا فينزله بلغة العَجَم.

وإن كانَ من القَولِ المُفَصَّلِ فهو كما قالَ بشر، ولن يجِدَ ذلك أبدًا، وإنما دخل الجهلُ على بشرٍ ومَن قال بقَوله -يا أمير المؤمنين- لأَنَّهُم ليسوا مِنَ العَرَبِ ولا عِلمَ لهم بلُغَة العرب ومعاني كلامِها، فأَوَّلوا القُرَان على لغة العَجَم ومعاني كلامها التي لا تفقه ما تقول، وإنما تتكلم العجمُ بالشيء كما يجري على ألسنتها، وكلُّ كلامِهِم ينقُضُ بعضَه بعضًا، لا يتفقَّدون ذلك من

أنفسِهِم، ولا ينتقدُه عليهم غيرُهم لكَثرته.

قال عبد العزيز: وسمعتُ الأصمعِيَّ، عبدَ الملكِ بنَ قريب، وسأله رجل فقال له: «أتُدغَمُ الفاءُ في اليَاءِ؟» فتبسَّم الأصمعيُّ وقبض على يدي -وكانَ صديقي- فقال لي: «أما تَسمَعُ!» ثُم أقبَلَ على السَّائِلِ وهو متعجِّب من مسألته وقوله فقال له: «تُدغَمُ الفاء في الياء في لغة إخواننا بني الأنباءِ بني ساسان، يقولون: «كَيَصْبَحْتَ»، فيدغمون الفاء في الياء، أما العرب فلا تعرف هذا»

قال عبد العزيز: فاشتد تبسمُ المأمونِ من قول الأصمعيِّ ووضع يده على فيه.

قلتُ: وهذا الذي يأتينا به بِشرٌ -يا أميرَ المُؤمنينَ- من لغُة أصحابِنَا بني الأنباءِ.

[الموصَّل والمفصَّل في القُرآنِ الكريم]

فقال بشر: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاءك يذمنا ويكفرنا ويقول أنا نحرف القرآن عن مواضعه، وهو قد وضع قدرَ القرآنَ وشأنَه وسماهُ بأنقَصِ اسمٍ وَوَصَفَهُ بأخَسِّ صِفَةٍ وأقلِّها ولقد خالَف بقولِه كتابَ الله وحرَّفَه عن مواضعه لأنَّ الله عز وجل سماه كتابًا عزيزًا، وسماه كريمًا، وأخبَرَ عنه أنه تامٌّ كامِلٌ بقوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍۚ﴾[الأنعام:٣٨]

وسماه عبدُ العزيز مُوَصَّلًا ومُفَصَّلًا، فخالَفَ كتابَ اللهِ تعالى وصِفَتِه وذمَّ ما مَدَحَ اللهُ تعالى.

لأن المُوَصَّل عند العرب والعجم وسائر الخلق: دُونَ التَّامِّ الصحيح الكامل، إذ كان المُوَصَّل عندَهُم جميعًا هو المُلَفَّقُ الذي قد وُصِلَ بَعضُه ببعضٍ ولُفِّقَ بعضُه ببعضٍ، فإذا أرادَ الرَّجُل من العرب وغيرِهم أن يضع مِن قدرِ الشيء قال: «هو موصل وليس هو صحيح» وقد سمى كتابَ الله اسما ناقصًا وقال فيه بُهتانا وإثما عظيمًا، ولو قلتُ أنا هذا وما هو دُونَه لكانَ قد خَطَبَ وكلَّم واستغاثَ بأميرِ المؤمنينَ وأخرَجَنَا عن الإسلام، وهو يقولُ العَظائمَ ويُحيلُ على العَرَبِ، وأميرُ المؤمنينَ -أطال الله بقاه- يحلُم عنه بِفَضلِهِ وهو يَتَقَوَّى بِحِلمِه علينا.

قال عبد العزيز: فَقُلتُ لبشرٍ: وهذا أيضًا من جَهلك بما في كتاب الله عز وجل، تذمني وتزعُم أني سميتُ كتابَ الله -تعالى- اسما ناقصا، وتُغرِي[1] بيَ أميرَ المؤمنينَ، وهو أعلمُ بِمَا قلتُ وما تكلمتُ مِنِّي ومِنكَ، وما قُلتُ إلا ما قاله اللهُ، وما نَسبتُ إلا ما نسبَه إليه وارتضاهُ لَه، وهو عند العرب الفصحاء كلامٌ جيدٌ صحيحٌ مُرتَضى، وأنت تزعُمُ أن كلام اللهِ الذي

---

(١) يغريه بمعنى يحرِّشه أو يحرضه.

هو مِنْ ذاته[١] مخلوقٌ وتُشَبِّهه بكلامِ المَخلوقِين من الشِّعرِ وقولِ الزُّورِ وغيرِه، وتُنكِرُ عليَّ أن سميتُه بما سماهُ الله تعالى به.

فقال بشر: وأينَ سمَّاهُ اللهُ مُوصلا ومفصلا؟

قلتُ: في كتابه مَن حيثُ لا تفهمُه ولا تعلمُه.

فقال: فهاتِه.

فقلتُ: قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥١﴾[القصص:٥١] فهذه تسميةُ الله -عزَّ وجلَّ- لكلامِه وتسميته له بِنَص التنزيل بلا بتأويل ولا تفسير، وهو الذي اختارَه لنَفسِه ولكلامِه وارتضاه له.

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ۝٢١﴾[الرعد:٢١] فامتدحهم بِصِلة ما وصلَ اللهُ وأثنى عليهم في غيرِ آيةٍ من كِتَابِه وَوَعَدَهُم على ذلك أحسَنَ عِدَةٍ، وهي الجنة، وقالت عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً

---

(١) كلمة «ذاته» يريد بها نفسه ولم ترد هذه الكلمة بهذا المعنى في الكتاب أو السنة أو لغة العرب. ولي بحث حول استخدامها منشور باسم «كلمة الذات ونسبتها لله تعالى»

وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ جَنَّـٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّـٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ سَلَـٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد:٢٢-٢٤] فهذه مِدحَةُ اللهِ وهذا ثناءُ اللهِ، وهذا جزاءُ اللهِ لمن وَصَلَ ما وَصَلَ الله.

ولقد ذم اللهُ عز وجل الذين قَطَعُوا ما أمَرَ اللهُ بِصِلَتِهِ وذمهم ولَعَنَهُم وجعلهم من الخاسرين فقال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد:٢٥] وقال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَـٰسِرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة:٢٧] فهذا ذَمُّ اللهِ لِمَن قَطَعَ ما وَصَلَ اللهُ وما أمَرَ بِصِلَتِهِ وهو وَعِيدُ اللهِ لهم بالنار.

ثم ذَكَرَ اللهُ ما في القُرَان من المُفَصَّلِ فقال عز وجل: ﴿الٓرۚ كِتَـٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [هود:١]

وقال عز وجل: ﴿حمٓ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾[فصلت:١-٣]

وقال عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٢٧﴾[الروم:٢٨]

وقال عز وجل: ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ۝٩٩﴾[الأنعام:٩٨] فهذا قولُ اللهِ، وهذه أخبارُ اللهَ، وهذه تسميةُ اللهَ لكلامه، وهذه نِسبَةُ اللهِ عز وجل لكلامه، وهذا اختيار الله عز وجل لكتابه ولكلامه، وهذا ما ارتضاه الله ورضي به مِن قائِله.

قال عبد العزيز: ثم أقبلتُ على أميرِ المؤمنينَ المأمونِ فقلت: يا أمير المؤمنين يزعُمُ بشرٌ أني سميتُ كتاب الله اسمًا ناقصا مذمومًا وأني ذهبتُ بقدرِه وسميتُه بما لم يسمِّهِ الله عز وجل، وإني أتيتُ بذلكَ بهتانا وإثما عظيمًا، ويدَّعي عليَّ الدعاوَى وأنا حاضرٌ مَعَهُ، وإنما ينبغي له إذا تكلمتُ بشيء بأن يطالبْني بإقامَةِ الحُجَّةِ عليه والدليلِ على كل الفظ بها لفظتُ بها، فإن لم أفعل ذلك، فليتكلمْ بما شاءَ.

ولقد أكذبه الله عز وجل في كتابه وذم قولَه وأبطَلَهُ بما أنزل اللهُ في كتابه من ذِكر الموصل والمفصل، وما قَصَدَ بِشرٌ -يا أمير المؤمنين- بقوله هذا إلا إلى تنقيص العرب كلِّها وذم كلامها ولغاتها وما تتعامل به في خطابها، إذ

كانت تُسمي كلامَ اللهِ تعالى موصلا ومفصلا، وتسمي كلامَهَا مفصلا وموصلا، وتختارُ هذه الأسماءَ لكلامها وترتضيها، وهي عندنا جميلَةٌ حَسَنَةٌ صحيحةُ المعنى لا خلاف بينَهُم في ذلك.

قال بشر: ما تتعارف العرب من هذا شيئا، وما أنت بأعلمَ بلغة العرب مني، وكل شيء نسبتَه اليوم إلى العرب فهو مخالف لقولِهَا ولُغَتِهَا ومذهَبِها في كلامها.

فقلت: وما تنفعني البيِّنةُ وأنت جاحد؟!

قال عبد العزيز: فأقبلتُ على المأمون فقلت: يا أميرَ المؤمنين -أطال الله بقاك- أنت بيتُ اللغَة وأعلمُ خلقِ اللهِ بلُغة العرب وكلامِهَا وما تتعارَفه وتتعامَل به في خطابها، وأنت الحاكم بيننا، فإن أكُن تَزَيَّدتُ على العربِ مُنذُ اليوم في شيء حكيتُه عن العَرَبِ أو نسبتُه إليهم أو عدلتُ عن سُنَّتِهِم ومذهبهم في شيء كلامهم وخطابهم ومخارج ألفاظهم فقد استحققت العقوبة من جهتين:

أحداهما: جرأتي على أمير المؤمنين أطال الله بقاه وقولي بين يديه، وحكايتي عن قومه ما يعلم خلافه مع علمي أنه أعلم خلق الله بذلك.

والأخرى: لكذبي على سائر العرب وادعائي الباطل عليهم وأمير

المؤمنين يشهد عليَّ بكذبي وتزيُّدِي، وهو أعلمُ خلق الله تعالى باللغة، وهو في حل وسعة مِن دَمي ومِن كل ما يُعَاقِبُني به؛ إن كان قد وقف على ذلك مني.

وإن يكن بشرٌ قد تَزَيَّدَ في القول، وادعى عليَّ الباطل؛ كان أميرُ المؤمنينَ أعلا عينا بالرَّدِّ عليه ومَنعِه مِن قول الزور والكذب.

فقال المأمون: ما قلتَ يا عبدَ العزيزِ منذُ اليومَ إلا ما تقولُه العربُ وما تتعارفُه وتتعاملُ به، وما خرجتَ عن مَذهبِهَا، ولو عدلتَ عن ذلك ما سَوَّغتُ لك الكذبَ عليها.

قال عبد العزيز: فقلتُ: الله أكبر، الله أكبر، كَذَبَ بِشرٌ واللهِ، بشهادةِ أمير المؤمنين -أطال الله بقاءه- لي عليه، أفلحتُ وَرَبِّ الكعبةِ، أفلحتُ ورب الكعبة، وظهر أمرُ الله وهُم كارهون.

فقال بشر: وعلى الخلقِ أن يتعلموا لغات العرب؟ ما تعبَّدَنا الله بهذا، كُلُّ إنسان يقول بلغته وعلى قَدْرِ معرِفَتِه، وما كلَّفَ اللهُ الخلقَ فوقَ طاقتهم، ولا طالَبَ أولادَ العجم بلُغات العرب، بل يقولوا بلغة المريسيين.

قال عبد العزيز: فقلتُ لبِشرٍ: فكلَّفَ الله الخلق أن يتكلموا بما لا يعلمون؟ حيثُ ادعيتَ العلمَ وتكلمتَ في القُرَان العظيم، وتأولت كتاب الله على غير ما عناه الله، ودعوت الخلق إلى إتِّبَاعِكَ، وكَفَّرتَ من خالفك

وأبحتَ دمه، والله قد نهى الخلق جميعًا فلم يُحاشِ نبيًّا مُرسَلا، ولا صِدِّيقًا، ولا عبدًا مؤمنا أن يقولوا مالا يعلمون، أو يتكلفوا ما لا يعلمون، فقال عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦﴾[الإسراء:٣٦]

وقال عز وجل لنوح عليه السلام: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ۝٤٦﴾[هود:٤٦] فقال نوح معتذرا إلى ربه معترفا بخطيئته مستغفرا منها: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ۝٤٧﴾ [هود:٤٧]

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝٧﴾[آل عمران:٧] يذمهم الله بهذا الخبر، وَذَمَّ فعلَهم وطريقَهم التي سلكوه.

فقال بشر: اخطب حتى تشبعَ من الكلامِ ثم أُخاطبك.

قال عبد العزيز: فقلتُ: يا أميرَ المؤمنينَ، إن بشرًا قد تحيَّر في ضلالته، وعَمِيَ عن رُشده، وبانت فضيحةُ قولِه ومَذهَبِه، وانقطع فما يأتي بحُجة.

فقال بشر: ما انقطعت ولا تَحَيَّرتُ ولا بانَتْ فضيحة مَذهبي، وإني لعلى بَيِّنَةٍ من أمري، وما دعوتُ الناس ولا أدعوهم إلا إلى سبيل الرشاد، ولا أنا وهم الأعلى سداد، وكل من خالَفَني فكافِرٌ حلالُ الدَّمِ.

قال عبد العزيز: فقلتُ: يا أميرَ المؤمنينَ، ما كان بقي على بشر غير هذا، قد قال كما قال فرعون، ولَجَأَ إلى طريق فرعَونَ فاتبعها، وإلى سبيله فسلكها.

فَتَبَسَّمَ المأمونُ حتى وضع يده على فيه، ثم قال: كيف قلت يا عبد العزيز؟

فأعدتُ عليه القولَ؛ فازداد تبسمًا، ثم قال: كيف قال بشر ما قال فرعونُ ولَجَأَ إلى سبيله؟

فقلت له: إني لما قرأتُ على بِشر القُرَان وأوضحتُ السبيلَ والبرهانَ ودلَلتُه على طريق النجاةِ، ونطقتُ بالحقِّ الذي أنطقني اللهُ به؛ قال بشر «إني لعلى بينة من ربي وما دعوت الناس إلا إلى سبيل الرشاد» وكذلك قال فرعون حين أنطقَ اللهُ مَن وفَّقَهُ لقول الحق، فقال عز وجل: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي

عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ [غافر:٢٨-٢٩]. [غافر ٢٨-٢٩] فلما قال هذا المؤمنُ الحقَّ الذي أنطقَ اللهُ بِهِ لسانَه وسدَّدَ بِه قولَه وسمعَه فرعون وقومُه؛ قال فرعونُ لقومِه: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾[غافر:٢٩] وكذلك قال بشرٌ يا أميرَ المؤمنينَ حين سمعني أقول الحقَّ الذي وفقني الله إليه وأنطقَ به لساني؛ فقال: «إني لعلى بينةٍ من ربي وما دعوتُ إلا إلى سبيلِ الرَّشادِ» فأجاب بمثل ما أجاب به فرعون عند سماعِ الحقِّ، واتَّبع سبيلَه وما عَدَلَ عنها، فبِشرٌ مَرَّةً يتَّبِعُ سبيلَ الشيطانِ ويأمُرُ بِمَا أمر به الشيطانُ = وقد قال الله: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾[النساء:٧٦] ومرة يتبع سبيلَ اليهود في تحريفِ القُرَان عن مواضعه، وقد قال الله عز وجل: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[النساء:٤٦] إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ﴾[النساء ٥٢]

وقال: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾[البقرة:٦١] ومثل هذا كثير = ومرةً يتبع سبيل الكُفَّارِ في التسويةِ بين اللهِ وبين خلقِهِ في خلقِ الأشياء، ومرة يتبعُ سبيل عَبَدَةِ الأصنام في الحَيدة عن الجوابِ، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ٢٥﴾[غافر:٢٥] ومرة يتبع سبيل فرعون والقول بمثلِ قوله، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ٣٧﴾[غافر:٣٧]

وقال عز وجل: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ١٨﴾[الأنبياء:١٨]

وقال عز وجل: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ٨١﴾[الإسراء:٨١]

فقال بشر: يا أمير المؤمنين -أطال الله بقاءكم- إنما يتكلم ويَخْطُبُ ليُنسي خصمه حُجَّتَه، ويشغَلَهُ بغَيرِهَا، ولولا بسطُ أميرِ المؤمنينَ له؛ لم يقدِر أن يديرَ لسانَه في فيه، وكانت الحجة عليه ظاهرةً.

ثم أقبل بشرٌ عليَّ وقالَ: لو خطبتَ إلى غد؛ ما تركتُ مطالبتك بما قلتَ، فَدَع عنك الهذيان وأقبل عليَّ.

فقلت له: يا بشر بعد نداء القُرَان تهدم كل ما أسست وصاخه في سمعه[١]، وتكذِّب ما زخرفت، وتشير إلى الكلام، فإن كنت لا تستحي من أمير المؤمنين، وقد وقعت من ذلك على ما قلت، فلا تستحي من الله تعالى وقد أبطل كفرك بكتابه وبكلامه

أورِد يا بشر ما شئت فعليَّ الإصدار[٢]، وتكلم بما شئت فإني مجيبُك.

فقال بشر: تَعَبَّدَ اللهُ الخلقَ أن يعرفوا المُوَصَّلَ والمُفَصَّلَ! وما يَضِرُ الخلقَ أن لا يعرفوا ذلكَ ولا يتعلموه؟

فقال له المأمونُ: قد رجَعْنا إلى الكلام الأول!

فقال بشر: إنه أدهشني بكلامِه وخُطَبِه عن تمامِ الكلامِ في هذا، وهو يتوهم أنه كسرَ قولي بهذا المُوَصَّلِ والمُفَصَّلِ الذي لا يُحتاجُ إلى معرفتِه ولا يُطَالَبُ أحدٌ بِه.

قال عبد العزيز: فقلتُ لبشرٍ: بل قد تَعَبَّدَ اللهُ الخلقَ أن يعرفوا ذلكَ ويتعلموه لِئَلَّا يَصِلُوا ما فَصَلَ اللهُ أو يفصِلُوَا ما وَصَلَ اللهُ.

---

[١] هكذا في المخطوط.

(٢) أي علي أن أرد ما تورده. والإصدار الإرجاع.

قال بشر: وما الحُجَّةُ في ذلكَ والدليلُ على صِدقِ قولِك؟

قال عبد العزيز: فقلت له: أما سمعتَ ما قرأتُ عليكَ مِن كِتَابِ اللهِ وما تَلَوتُ عليكَ من الآياتِ المُحكَماتِ فيمن وَصَلَ ما أمَرَ اللهُ بِه أن يُوصَل، ومَن قَطَعَ ما أمر الله به أن يقطع، وما وَعَدَ اللهُ هؤلاءِ من حُسنَى وعُقبى الدارِ، وما تَوَعَّدَ اللهُ بِه هؤلاءِ من اللَّعنَةِ والعذابِ وسوء الدار؟

فقال بشر: دَع ذكرَ ما مضىَ، فما لكَ فيه حُجَّةٌ، واحتجَّ الساعةَ بشيءٍ أفهَمُه.

قال عبد العزيز: فقلت له: صدقتَ إنكَ ما فهمتَ ما مضى، ولو فهمتَ ما قُلتَ ما قلتَ، ولأقنعك بعضه.

وأقبلتُ على المأمون فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ في دونِ ما قد مضى لكفايةً وبلاغًا، ولكنْ بشرٌ يزعم أنه لم يفهم شيئًا مِمَّا مضى، وأنا أتكلمُ في ذِكرِ المُفَصَّلِ والمُوصَّلِ مِن القُرَان، وأحتَجُّ للعَرَبِ في صحةِ لُغَاتِها ومذاهِبِهَا في كلامِهَا وخِطابِها.

فقال لي المأمون: إن كان بشرٌ لم يفهم ما مضى؛ فكذلك لا يفهمُ إعادةَ ما يأتي، فَدَعْ إعادَةَ شيءٍ قد مَضى وظَهَرَتْ لك الحُجَّةُ فيه، فإن هذا وقتُ الصلاةِ.

[أمثلة على المُوَصَّل]

فقلت: يا أمير المؤمنين، إن رأيتَ أن تأذَنَ لي أن أتكلمَ بشيء لم أتكلمْ به في هذا المعنى أقيمُ به الحُجَّةَ على بِشرٍ، وأرجو أن يستحسنَه أميرُ المؤمنينَ -أطال الله بقاءه- من غير إطالةِ الكلام.

فقال: تكلمْ وأوجِز.

قال عبد العزيز: فأقبَلتُ على بشرٍ فقلتُ: يا بشرُ قلت إن الله لم يتعبد الخلقَ بمعرفَةِ شيء من غيره أو زادَ فيه أو نَقَصَ منه كان كافرا؟

قال بشر: ما قلتُ هذا يا أميرَ المؤمنين، وهو ذا يدَّعيه علي.

فقلت له: أخبِرني عمَّن قال: «إن الله عز وجل لم يتعبد الخلق بمعرفة شيء من غيره، أو زاد فيه أو نقص منه أو غيره عما هو عليه كان كافرا» فكان فاعل ذلك كله يكون صادقا أو كاذبا؟

فقال: بل كاذِبًا، وأنا أقول: كل شيء إذا أُزِيدَ فيه أو نُقِصَ منه أو غُيِّرَ عما هو عليه فكان فاعل ذلك كافرا، إن الله تعبد الخلق بمعرفته وعلمه.

فقلت له: قد وافَقتَنِي وأجبتَ نفسَكَ عني، وأقررتَ بما أنكرتَ.

فقال لي بشر: دع الكلامَ والتشبيهَ عنك وأقِمِ الشاهدَ والدليلَ على ما

تقولُ.

قال عبد العزيز فقلت له: قال الله عز وجل: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١٨﴾ [آل عمران:١٨] فأخبَرَ اللهُ أنه لا إلٰه إلا هو وشَهِدَ بذلك لنفسِه وشهدَتْ الملائكةُ وأولو العلمِ بِمِثلِ ذلك، فلو قال رجلٌ: «شهد الله أنه لا إلٰه» وقَطَعَ الكلامَ والصِّلَةَ عامِدًا؛ كان كافرًا حلال الدم لأنه زَعَمَ أن الله شهدَ أنْ لا إلٰه، وشهدَت له الملائكةُ وأولو العلمِ بذلك، ومن قالَ هذا عامِدًا؛ كان كافرا حلالَ الدمِ لأنه أعظَمَ على الله الفِريَة، وأبطل الرُّبوبِيَّةَ، وجحد أن يكونَ اللهُ تعالى إلهًا، واستشهَدَ اللهَ وملائكتَه وأولي[١] العلمِ على قولِه، فإذا وَصَل الكَلِمَةَ كما وصلها الله عز وجل فقال: «شهد الله أنه لا إلٰه إلا هو والملائكة وأولو العلم» كان صادقًا وكان قد قالَ كما قالَ اللهُ عز وجل وشهد به لنفسِه وشهدَتْ له بِه الملائكةُ وأولو العلم.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ٢٥٥﴾[البقرة:٢٥٥] وكذلك كلُّ ما في القُرَان من التهليلِ(٢) وهو أربعون موضعا فعلى هذا المعنى

---

[١] في المخطوط «وأولو» وهي خطأ لأنها منصوبة.

(٢) التهليل: هو قول: لا إله إلا الله.

مِن فَصَلَهُ من صِلَتِهِ وزادَ فيه أو نَقَصَ مِنهُ؛ كان كافرًا.

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ ٢٥﴾[البقرة:٢٦] فلو أنَّ رجلًا قال: «إن الله لا يستحي» وقطع الكلام عامِدًا؛ كان كافرًا لأنه زعَم أن الله لا يستحي، ومَن قال هذا فقد أعظَمَ الفِريَةَ إذ أخبَرَ عن اللهِ أنه أخبر عن نفسه أنه لا يستحي فقد كفر وحل دمه بقوله هذا.

وكذلك قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾[الأحزاب:٥٣] فلو قال رجلٌ: «واللهُ لا يستحي» وقَطَعَ الصِلَةَ عامِدًا كانَ كافرًا حلال الدم حتَّى يَصِلَ ما وصَلَ اللهُ في الحَرفَين[١] جميعا فيقول في الأول: «أن يضرب مثلا» ويقول في الآخر «مِن الحق» فيكونُ قد وَصَلَ ما وَصَلَ اللهُ ولم يقطعْهُ، وإن لم يصِلْهُ كانَ كافِرًا حلالَ الدَّمِ.

وقال الله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾[الأنعام:٥٩] فلو قال رجل: «وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها» وقَطَعَ الصِلة عامدا كان كافرا حلال الدم لأنه زعم أن الله لا يعلم الغيبَ، ومن زعم هذا فقد ردَّ أخبارَ

---

(١) كلمة حرف تعني الوَجه، وتطلق أحيانا على الكلمة أو العِبارة.

اللهِ عز وجل، ورَدَّ قولَ الله عز وجل بشهادَتِه لنفسِه بعِلمِ الغيب بأنه قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ۝١٠﴾ [الرعد: ٩]

وقال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ۝٢٧﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٣٨﴾ [فاطر: ٣٨] فمَن قالَ «إن الله لا يعلم الغيبَ» فقد كفر وحل دمه، فإذا وصل ما وصل الله عز وجل ولم يقطعه فقال: «وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو» كان صادقًا، وكانَ قد قالَ ما قالَ اللهُ عز وجل، وَوَصَلَ ما وصلَ اللهُ عز وجل، ومثلُ هذا في القُرَان كثير.

قال المأمون: أحسنتَ أحسنتَ يا عبدَ العزيزِ.

[أمثلة على المفصَّل]

قال عبد العزيز: فقلت لبشر: استَمِعْ لباقي مسألتك.

فقال بشر: هاتِه.

قال عبد العزيز: وأما المُفَصَّلُ الذي لا يجوزُ صِلَتُهُ؛ فقولُ اللهِ عزَّ

وجلَّ: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ﴾[النحل:٦٠] هاهنا تمَّ الكلامُ، ثم يبتدي القاري فيقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦٠﴾[النحل:٦٠] فلو قال رجلٌ «للذين لا يؤمنونَ بالآخرةِ مثلُ السَوءِ ولله» وقَطَعَ الكلامَ عامِدًا؛ كان كافرًا حلالَ الدَّمِ لأنَّه زَعَمَ أنَّ للهِ مَثَلُ السَّوءِ وشبَّهَهُ -جل جلاله- بالذِينَ لا يؤمنونَ بالآخرة، وأدخَله معهم في المَثَلِ السَّوءِ -تعالى الله عن ذلك- فإذا فَصَلَ الكلامَ كما فَصَلَهُ اللهُ ولم يصله بما لم يصِله اللهُ به، فقال: «للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء» وقطع الكلام كان صادقا وكان قد وقَفَ على تمامِ الكلامِ، وفَصَلَ ما فَصَلَ اللهُ عز وجل، ولم يصِلْ ما فَصَلَ اللهُ.

قال الله عز وجل: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ﴾[التوبة:٤٠] هاهنا تم الكلامُ ثُمَّ يبتدي القاري فيقرأ: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ﴾[التوبة:٤٠] فلو قال رجل: «وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله» وقَطَعَ عامِدًا؛ كان كافِرًا حلالَ الدَّمِ لأنه قد أعظم الفرية على الله عز وجل، وزعم أن الله قد أخبر أنَّ كلمتَه سُفلى مع كلمةِ الذينَ كفروا، فشبَّهَ اللهَ تعالى بالذين كفروا، فإذا فَصَلَ الكلامَ مِنَ الصِّلَةِ فقال: «وجعل كلمة الذين كفروا السفلى» وَوَقَفَ على ذلك، وقَطَعَ الصِّلَةَ؛ كان صادقا، وكان فصل ما قد فصل الله.

قال عبد العزيز: فأقبل عليَّ المأمونُ فقالَ: أحسنتَ يا عبد

العزيز، وقد أبلغتَ فلا تحتاجُ إلى زِيادةٍ.

ثم أقبَلَ على بشرٍ فقال: يا بشرُ، هل عندَكَ شيءٌ تحتاجُ تسألُ عنه عبد العزيز أو تحتُجُّ عليهِ به، فقد ظهرت حُجتهُ ووضحَ قولُه عندنا.

[استيعاب القُرَآن لمهمات الدين]

قال بشر: يا أمير المؤمنين -أطال الله بقاءك- هذا يُرِيدُ نصَّ التنزيلِ بكل ما يتكلمُ به أو يلفِظُ به، وليس كل ما يتكلَّمُ به الناسُ ويحتجُّونَ بِهِ يجدون به نص التنزيلِ، وإنما يجدونَه في التأويلِ والتفسير، وهذا لا يَقبَلُ التأويلَ، ويُبطلُ التفسيرَ، حتى كأنه كان مُشَاهِدُ التنزيلَ، وهذا مالا أُسَوِّغُه أنا للمُتناظرينَ، ولا أُطلقُهُ للمُتَكَلِّمِينَ، إذ كان الناسُ لا يجدونَ علمَ كل ما يختلفون فيه ويتنازعون مِن أمر دينِهِم في كتاب الله بنص التنزيلِ، ولو كانَ هذا كما يقولُ عبدُ العزيزِ لبَطَلَ التفسيرُ كلُّهُ، وبقيَ الناسُ في حَيرَةٍ مِن أمرِ دينِهِمْ، والنَّاسُ جميعًا يوافقُونِي على قَولِي ويُخالفُونَ عبد العزيز.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أميرَ المؤمنينَ أطال اللهُ بقاءَك، كُلُّ ما يتكلَّمُ به الناسُ من عِلمِ دينِهِم وما يختلفُونَ فيه ويتنازعون فيه؛ فهو موجودٌ في القُرَآن وفي غيره من كُتُبِه، لقوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن

شَيۡءٖۚ﴾[الأنعام:٣٨]

وقولِه: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾[الأعراف:١٤٤-١٤٥] فأخبر الله عز وجل أنه ما فرط في الكتاب من شيء، يعني القُرَان، وأخبر أنه كتب في الألواح لموسى من كل شيء، فليسَ مِنْ شيءٍ يحتاجُ إليهِ -يا أمير المؤمنين- إلا وهو موجودٌ في القُرَان، عقلَهُ مَن عَقَلَهُ، وجَهِلَهُ مَن جَهِلَه.

[إنكارُ جهميٍّ علمَ الله تعالى ما سيكون][١]

قال عبد العزيز: وكان خلفَ ظهري= وأنا في مجلس أمير المؤمنين المأمونِ أناظرُ بِشرًا على ما قد ذكرته في هذا الكتاب= رجلٌ ممن يعرف بالكلامِ والنَّظَر، فَجَعَلَ كُلَّمَا سَكَتَ بشرٌ وانقَطَعَ عن الكلام؛ يُحرِّضْه على الكلامِ، وإذا أردتُ أنا أن أتكلم؛ لا يزالُ يهذِي خَلفِي ويُقَرِّبُ رأسَه مِنْ أُذُنِي ليُسمِعَنِي ويُدهِشَنِي ويقطعَني بذلك عن حُجَّتِي، فشكوتُ ذلك إلى المأمون فصاح به

---

[١] هذه الفقرة كانت في آخر الكتاب فأتيت بها إلى هنا لأنه موضع الكلام.

وباعَدَه منِّي.

فَلَمَّا قلتُ لبشر: «ما من شيء كان أو هو كائن مما يحتاجُ الناس إلى معرفته وعلمه إلا وقد ذكره الله عز وجل في كتابِه، عقله من عقله، وجهله من جهله» فإذا ذلك الرجلُ يضرِبُ يده على فَخِذِه ويقول: «يا سبحان الله تزعم أن كل ما هو كائن مما يحتاج إليه قد ذكره الله في كتابه؟! ما أعظمَ هذا! وكيفُ يعلمُ ما هو كائِنٌ فيذكرَه؟»

قال عبد العزيز: فالتفتُّ إليه فقلت له: أنت جَهمِيٌّ قَدَريٌّ أيضًا، وأنت تهذي دائما.

ثم أقبلتُ على المأمونِ فقلتُ: يا أميرَ المؤمنينَ -أطال الله بقاءك- إن هذا الذي شكوتُ إليكَ أذاهُ منذ اليوم؛ هو جهميٌّ قَدَرِيٌّ قد جَمَعَ الأمر مِن جهتين، يُنكِرُ أن يكونَ اللهُ يعلمُ ما يكونُ قبلَ أن يكونَ.

فقال المأمون: هذا قولُه.

فقلت له: إن رأى أمير المؤمنين -أطال الله بقاءه- أن يأذَنَ لي حتَّى أُكْذِبَه وأكسرَ قوله، وأدحضَ حجته، وأُبطِلَ مذهَبَه بنص التنزيلِ الساعَةَ.

فقال المأمون: لهذا وقتٌ غيرُ هذا، تتكلمُ مَعَهُ ومعَ غيرِه في القدَرَ

خاصة.

قال عبد العزيز: فقلتُ: يا أمير المؤمنينَ لست أُطَوِّلُ، إنما أحتَجُّ عليهِ بآيَةٍ واحِدَةٍ من كتاب الله تعالى.

فقال المأمون: قل ما تُريد.

قال عبد العزيز: فأقبلت عليه فقلت له: أتُنكِرُ أنَّ اللهَ يعلَمُ ما يَكونُ قبل كون.

قال: نعم، أنا أُنِكرُ هذا.

فقلتُ: واللهِ يا أمير المؤمنين، لقد عَلِمَ اللهُ ما لم يَكُنْ ولا يكونُ أن لو كانَ كيف كانَ يكونُ.

فصاح الرجل: سبحان الله ما أجرأكَ على الكَذِبِ، الحمد لله الذي أخذك بلِسانك.

فقال المأمون: أعد هذا الكلام يا عبد العزيز.

فقلت له: نعم والله لقد عَلِمَ اللهُ ما لم يكُنْ ولا يُكونُ أن لو كان كيف كان يكون.

فقال لي المأمون: يا عبدَ العزيز، هذا شيءٌ تقولُه مِن نفسِكَ أو شيءٌ تَحكيهِ عن غيرِك؟

فقلت له: هذا شيءٌ أخبر الله به في غير آية في كتابه الذي أنزَلَهُ على نبيهِ ﷺ.

فقال لي المأمون: فأينَ ذلك مِن كتابِ اللهِ عز وجل؟

قال عبد العزيز فقلت: قال الله عز وجل: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٨﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٩﴾﴾[الأنعام:٢٧-٢٨] فأخبر الله عنهم أنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون في قولهم هذا.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾[الأنفال:٢٣] فأخبر الله تعالى لو أسمعهم لتولوا وهم معرضون.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾[المؤمنون:٧٥]

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝١٥﴾[الحجر:١٤-١٥]

وهذا ما لم يكن ولا يكون لأنهم لا يُرَدُّونَ، لا هم ولا غيرُهم، فأخبَرَ عز وجلَّ بعِلمِه السابِقِ فيهم أن لو رُدُّوا ما كانوا فاعلين، ولن يُردُّوا أبدًا، ولا يرحموا أبدا، ولا يسمعهم أبدا، ولا يفتح لهم بابا إلى السماء أبدا، فهذا ما لمْ يكُن ولا يكونُ، فأخبر تعالى أن لو كان كيف كان يكون.

فقال لي المأمون: أحسنت أحسنت يا عبد العزيز، فما قُلتَ في يومِكَ هذا أحسَنَ ولا أدقَّ من هذا.

فقلت: قد أكذَبْتُ واللهِ أهلَ هذه المَقالةِ وكَسَرتُ قولَهُم، ودحضتُ حُجَّتَهُم، وأبطلتُ مذهَبَهُم بنص التنزيل بلا تأويلٍ ولا تفسير

[فصل: احتجاج ابن الجهم بأن القُرآن لم ينص على خلق الحصير]

قال عبد العزيز: فَجَثَى محمدُ بنُ الجَهمِ على رُكبَتَيهِ وقال: يا عبد العزيزِ، زعمتَ أن كلَّ شيءٍ يتكلمُ به النَّاسُ ويَحتاجونَ إلى مَعرفته موجودٌ في كِتَابِ اللهِ بِنَصِّ التنزيلِ لَا بتأويلٍ ولا بتَفسيرٍ، فأوجِدنَا أنَّ هذا الحَصِيرَ مَخلوقٌ أو غيرُ مخلوقٍ من كِتَابِ اللهِ تعالى بِنَصِّ التَّنزِيلِ.

ووضع يده على حصير مدني[١] كان تحتنا مبسوطا في الإيوان.

فقلت له: نَعَمْ، عليَّ أنْ أُوجِدَك ذلك.

قال عبد العزيز: فأقبلتُ عليهِ فقلت له: أخبِرنِي عن هذا الحَصيرِ، أليسَ هُو مِن سَعَفِ النَّخْلِ وجُلُودِ الأنعَامِ؟

قال: بَلَى[٢].

قلتُ: فَهَل فيهِ شيءٌ غيرُ هذا؟

قال: لا.

فقلت له: هل هاهنا شيءٌ غيرُ هذا؟

---

[١] في الأصل هكذا، وفي المطبوع مرمي.

(٢) فائدة: إذا قيل «أليس كذا» فإن أجَبتَ بالمُوافَقَة؛ فلا تقُل: «نعم» فإنَّ هذا خطأ شائع، بل قل: «بلى»

قال: لا.

فقلت له: بل هاهنا شيءٌ بِه صارَ حَصيرًا يُجلَسُ عليه.

قال: فما هو؟

قلت: الإنسانُ الذي صَنَعَهُ وألَّفَه وأحكَمَه.

قال: نعم.

قال عبد العزيز: فقلت له: قال الله عز وجل وقَد ذَكر الأنعامَ فقال: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥﴾[النحل:٥] وأما السَعَفُ فإنَّ اللهَ ذَكَرَهُ فقال: ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝٧٢﴾[الواقعة:٧٢] وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢﴾[المؤمنون:١٢] فَقَدْ كَمُلَ خَلقُ الحَصِيرِ بِنَصِّ القُرَان بلا تأويلٍ ولا تَفسيرٍ، فهل عندك مثلَ هذا في خَلقِ القُرَان تذكُرُه وتحتجُّ به؟ وإلاّ فقد بَطَلَ ما تدَّعونَه في خَلقِه، وصحَّ قولي أنه غير مخلوق ولَم يَزَلْ صَحِيْحًا أنَّ القُرَان كلامُ الله تعالى ليس مخلوقًا من كلِّ جِهَةٍ.

قال فصاح المأمون بمحمدُ بنُ الجهم: مالَكَ وللكلامِ؟ خلِّ بينَ الرَّجُلِ وبينَ وصاحِبِه حتى يُكَلمُه.

وأقبل على بشرٍ فقال: يا بشرُ، هل عِندَكَ شيءٌ تناظِرُ به عبدَ العزيزِ قبلَ أن نصرِفَه ونقومَ، فقد طالَ المَجلِسُ وصُلِّيَتِ الظهرُ.

[فصلٌ: ردُّ شبهاتِ بشرٍ الكَلاميَّة]

فقال بشر: يا أمير المؤمنين، عندي أشياءُ كثيرة، إلا أنه يَقُولُ بِنَصِّ التنزيلِ، وأنا أقول بالنَّظَرِ والقِيَاسِ، فلْيَدَعْ مُطَالبتي مناظرتي بنص التنزيل ويناظرْني بغيرِه، فإن لم يدَع قولَه ويرجع عنهُ ويقولُ بقولِي ويُقِرَّ بخَلقِ القُرآنِ الساعةَ فدَمِي حلالٌ.

فقال له المأمون: لهذا مجلسٌ بعد هذا تتناظِرُونَ فيه.

قال عبد العزيز فقلت: يا أميرَ المؤمنين -أطال الله بقاءك- إن رأيتَ أن تأذَنَ لي فأُناظِرُه كما سألَ على جِهَةِ النَّظَرِ والقِيَاسِ، وأدَعُ مطالَبَتَهُ بالقُرَان ونص التنزيل، ويكونُ أميرُ المؤمنينَ أطال الله بقاءهُ الشاهِدُ علينا والمُتَحَفِّظُ لكلامَنا، فإن أقامَ بِشرٌ عليَّ الحُجَّةَ كما زَعَمَ وأقرَرْتُ بشيءٍ ممَّا قالَ أوَ رَجَعتُ عن شيءٍ مما قلتُ؛ فدمي حلالٌ كما قال بشر، وإن ثَبَتَتِ الحُجَّةُ عليهِ من القِيَاسِ والنظرِ كما ثَبَتَتْ عليهِ من القُرَان والسنةِ وشهدَ عليه أميرُ المؤمنينَ بذلكَ؛ فقد حلَّ دمُه بما شَرطَ على نفسِه.

فقال المأمون أنا الشاهدُ عليكما والحكمُ بينَكُمَا، فأوجِزَا واقصِرَا ولا تُطيلا فيخرُجُ وقتُ الصَّلاةِ.

قال عبد العزيز لبِشرٍ: أتسألُنِي أم أسألُك؟

فقال: سَلْ أنتَ.

[قال عبد العزيز:] وطمِعَ فيَّ هو وجميعُ أصحابه، وتوهمُوا أني إذا خرجتُ عن التنزيلِ؛ لمْ أُحسنْ أتكلم بشيءٍ غيرِه[1].

---

(١) وهذا حال الزنادقة المتكلمين، إذا لم يجاريهم السُّنِّيُّ بشيء مِن أصولهم ومُصطلحاتهم المبتدعة؛ ظنوا ذلك جهلًا منه بِهَا. وإن الأصل أن لا يُوَافَقونَ ولا يُجَارَونَ عليها، ويُقَرَّعونَ ويُبَكَّتونَ بالوحي والآثار كما فعل عبدُ العزيز -طيَّب الله ثَراه، ورَضيَ عنه- فإن موافقتهم عليها، ومجاراتهم عليها فيها نوع مِن القَبولِ بها، والإقرارِ لها، والرِّضى بِها في الظَّاهر، فإنَّ الأصلَ أن تُنكَرَ عليهِم، وتُرَدُّ بِوَجهِهِم، ويقال لهم إنها باطل، وإن المسلم لا يلوك الباطل، وأما رضى عبد العزيز بها الآن فقد كان بعد أن بكَّتَهم بنصوص الوحي، وأقرُّوا له بعجزهم عن الحجَّة، فأراد ان يبطل حجتهم بسيفهم الذي هو الرأي والقياس، وذلك لأظهر عجزهم وخورهم حتى في العقليَّات، ولأن المأمون وحاشيته متأثرون بهم وبكلامهم، وهذه منه مخاطرة لأمرين: الأول: إنه لو كَسَروه بحجَّة فلسفيَّة باطلة وغير معتبرةٍ شرعًا؛ فإنَّه لا يستطيع أن يخرُجَ مِنهَا بقولِه إن أصل الاحتجاج بالأدلة الفلسفيَّة باطل بعد أن رضي محاجَّتهم فيه. والثاني: قدرتهم على الإتيان بجدليَّات جديدة لاحقًا، ولا نهاية لذلك، وهذا يجعل لهم حجّة بها وكلما زادوا جدلا احتاج أهل السنة إلى الإغراق معهم أكثر في جدلهم هذا، وأما الوحي فليس لهم

=

قال عبد العزيز: فقلتُ: يا بشر تَقُولُ إن كلام الله مخلوق؟

فقالَ بشر: أنا أقول إن القرآن مخلوقٌ.

قال عبد العزيز فقلت له: يلزمك واحدة من ثلاثٍ: لا بُدَّ منها:

أن تقولَ إنَّ اللهَ خَلَقَ القُرَان -وهو عِندي أنا كلامُه[1]- في نفسِه.

أو خَلَقَهُ في غُيرِه.

أو خلقه قائمًا بِذَاتِه ونَفسِه.

فقل ما عِندَك.

قال بشر: أقول إنه مخلوقٌ وإنه خلقَه كما خَلَقَ الأشياءَ كلَّهَا.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين، تَرَكنَا القُرَان والسُّنَنَ

قدرة على أن يأتوا بجديد فيه. وترى أن أحمد ابن تيمية حارَبَ الجهميَّة بسيفِهِم الفلسفي، وكسَرَ حججهم بأصولهم، فجعل بعض المنتسبين لأهل السنة هذه المصطلحات التي جاراهم بها: سُنَّة، وجعل بعضُ الأغبياء عِلمَ الكلامِ عمًا حسنًا لأن ابن تيميةَ كان عالمًا بِه واستخدمه بالرَّدِّ عليهم، ولم يفهموا أن ذلك كان بمثابة أكل المَيتة.

(١) أي عند عبد العزيز، فقد أكد على ذلك لكيلا يفهم غبيٌ أنه حينما قال «خلق القرآن» فإنَّه أقر بخَلقِه.

والأخبارَ عند هروبِهِ منها، وناظرناه بالقياسِ والكلامِ لِمَا ادَّعاهُ وذَكَر أنه يُقِيمُ الحُجَّة عليَّ بِها، فطمع أني أقِرُّ مَعَهُ بخَلقِ القُرَان، فقد رجَع بشرٌ إلى الحَيدة عن الجَوابِ وانقَطَعَ الكلامُ، فإن كان بشر يريد أن يناظرني على أنه يجيبُني عمَّا أسألُهُ عنهُ، وإلاّ فأميرُ المؤمنينَ أعلا عينًا في ما يراهُ في إصرافي، فإنما يريدُ بِشرٌ أن يَقَعَ مَعَه مَن لا يفهَمُ فَيَخدَعه عن دِيْنِه، ويحتجَّ عليِهِ بما لا يعقِلُه فتظهَرُ حجتُه عليهِ فيُبِيحُ دمَه بذلك.

قال عبد العزيز: فأقبَلَ عليه المأمون فقال: أجِب عبدَ العزيزِ عما سألك، فقد ترك قولَه ومذهَبَه وناظرك على مذهَبِكَ، وما ادَّعيتَ أنك تُحسِنُه وتقيمُ الحُجَّةَ بِه عليه.

فقال بشر: قد أجبتُه ولكنَّه يَتَعَنَّتُ.

فقال له المأمون: يأبى عليكَ عبدُ العزيز إلا أن تقولَ واحدةً من ثلاثٍ.

فقال: هذا شَرٌّ من مُطالبَتِه لي بنص التنزيلِ، وما عندي غيرَ ما أجبتُه به.

قال عبد العزيز: فأقبَلَ عليَّ المأمونُ فقال: يا عبد العزيز، تكلَّم أنتَ في شَرحِ هذه المسألةِ وبيانِها، وَدَعْ بِشرًا فقد انقطع عن الجواب من كُلِّ جِهَةٍ.

فقلتُ: نعم يا أمير المؤمنينَ، سألتُه عن كلامِ اللهِ عزَّ وجَلَّ أمخلوقٌ هو؟
قال: «نعم» فقلت: يلزمُه في هذا القولِ واحدَة من ثلاثٍ لا بد منها:

إما أن يقول: إن الله خلق كلامه في نفسه.

أو خلقه في غيره.

أو خلقه قائما بذاته

فإن قال «إن الله خلق كلامه في نفسه» فهذا مُحالٌ لا يَجِدُ السَّبِيلَ إلى القَولِ بِه من قِياسٍ ولا نَظَرٍ ولا معقولٍ، لأن اللهَ عزَّ وجلَّ لا يكونُ مكانًا للحَوَادِثِ[1]، ولا يَكونُ فيهِ شيءٌ مَخلوقٌ، ولا يكونُ ناقصًا فيَزِيدُ فيهِ شيءٌ إذا خلقه، تعالى الله عن ذلك وجل وتعظَّم.

وإن قال: «خلَقَهُ في غيرِه» فيلزمُه في النَّظَرِ والقِياسِ أن كل كلامٍ خَلَقَهُ اللهُ في غيرِه فهو كلامُ اللهِ عز وجل، ولا يقدِرُ أن يُفَرِّقَ بينهما، فيجعلَ الشِّعرَ كلامًا للهِ، ويجعلَ قولَ الزور كلامًا لله، ويجعل الكفرِ والفُحشِ وكلَّ قولٍ ذمَّهُ اللهُ وذمَّ قائلَه؛ كلامًا لله عز وجل، وهذا مُحَالٌ لا يَجدُ السبيلَ إليهِ ولا إلى القَولِ بِه لظُهورِ الشناعَةِ والفَضِيحَة والكفر على قائِلهِ، تعالى الله عن

(١) الحوادث في لغة أهل الكلام: أي المَخلوقات

ذلك.

وإن قال: «**خلقه قائما بنفسه وذاته**» فهذا هو المُحَالُ الباطِلُ الذي لا يَجِدُ إلى القولِ بهِ سبيلًا في قِياسٍ ولا نَظَرٍ ولا مَعقُولٍ، لأنه لا يكونُ الكلامُ إلا مِنْ مُتَكَلِّمٍ[١]، كما لا تكونُ الإرادَةُ إلا مِنْ مُرِيدٍ، ولا العِلمُ إلا من عالِمٍ، ولا القُدرَةُ إلا من قادر، ولا رُئِيَ ولا يُرَى كلامٌ قطُّ قائِمًا بِنَفسِهِ يَتَكَلَّمُ بِذَاتِه، وهذا ما لا يُعقَلُ ولا يُعرَفُ، ولا يَثبُتُ في نَظَرٍ ولا في قِيَاسٍ ولا غَيرِ ذلكَ، فلما استحالَ مِن هذه الجِهاتِ الثلاث أن يكونَ مَخلوقًا؛ ثَبَتَ أَنَّه صِفَةٌ للهِ، وصفاتُ اللهِ عزَّ وَجَلَّ كُلُّها غيرُ مَخلوقَةٍ، فَبَطَلَ قولُ بشرٍ -يا أمير المؤمنين- مِن جِهَةِ النَّظَرِ، كما بَطَلَ مِن جِهَةِ القُرَان والتَّنزيلِ.

فقال المأمون: أحسنتَ يا عبد العزيز.

فقال: سَل عن غيرِ هذه المسألةِ فلعلَّه يَخرُجُ منها شيءٌ.

فقلتُ: نَعَمْ، أنا أدع هذه المسألة، وأسألُ عن غيرِها.

فقالَ: سَل.

---

(١) وهُنا قَد يقول قائلٌ مِن أهلِ الكلام: الله قادِرٌ على أن يخلُق أمواجًا صوتيَّةً في الهواء تكون كلامًا يسمعه الناس، فيقال له: هذا يسمّى صوتًا لا كلامًا، ولهذا يقول الشيخ: لا يكون الكلام إلا مِن متلكلم.

قال عبد العزيز: فقلت لِبِشرٍ: تقولُ إن اللهَ كانَ ولا شيءَ، وكانَ ولَمَّا[١] يفعلْ شيئًا ولَمَّا يخلقْ شيئا؟

قال: بلى.

فقلت له: بأيِّ شيءٍ حدَثَتِ الأشياء بعدَ إذْ لم تكُنْ؟ أهِيَ أحدَثَتْ نفسَهَا أم اللهُ أحدَثَهَا؟

قال: بل اللهُ أحدَثَها.

فقلت له: فَبِأيِّ شيءٍ أحدثها؟

قال: أحدثها بِقُدرَتِهِ التي لم تَزَل[٢].

---

(١) كلمة «لمَّا» بمعنى «لم» مع فرق يسير، وهو أن «لمَّا» تفيد أن ذلك الفعل المنفي سيقع بعد ذلك.

(٢) معنى ((لم تَزَل)) بلغة أهل الكلام: أي هي صفة لله تعالى لا أوَّلَ لها، فهو متصف بها بدون بداية لذلك. تنبيه: وجوابُ بِشرٍ هذا حَرَف مسارَ احتجاج عبد العزيز -رحمه الله- إذا أن الحجَّة كانت ستكون بأن يسأله: ((بأي شيء خلق الخَلق)) فيكون الجواب: بقوله: ((كن)) فيقول عبد العزيز: ((فهذا إقرار بأن قوله ((كن)) غير مخلوق، فكلامه غير مخلوق)) لكن يبدو أن بشرًا منتبه إلى هذه المسألة، فأجاب بهذا الجواب، إلا أن عبد العزيز -رفع الله منزِلته- عرف كيف يرد عليه، وهذا ما يجب أن ينتبه إله المُناظر، أن لا يظن أنَّ الأمر سهل، فإذا حفظ حجَّة؛ ظن نفسه قادر على المناظرة بها، فإن لم يكن ذكيًّا وبريعَ البديهَة بحيث أنَّه يقدر على مجارات خصمه حيث ذهب؛ فإنه لا يُناظِر.

قلت له: صَدَقتَ، أن الله أحدثها بقُدرَتِه التي لم تزل.

قلت: أفَلَيسَ تقولُ إنه لم يَزَلْ قادِرًا؟

قال: بلى.

قلتُ له: أفتقولُ إنه لم يَزَلْ يفعَلُ؟

قال: لا أقول هذا.

قلتُ لَه: فلابدَّ مِنْ أن يلزَمَكَ أن تقولَ: إنه خَلَقَ بالفِعلِ الذي كانَ عَنِ القُدرَةِ، وليسَ الفِعلُ هُو القُدرة، لأن القُدرَةَ صفةُ اللهِ تعالى، ولا يُقَالُ لصِفَة الله هي اللهُ، ولا هي غيرُ الله.

فقال بشر: ويلزمُك أيضًا أن تقولَ: إن الله لم يزل يفعَلُ ويخلُقُ[1]؟ وإذا قُلتَ ذلكَ فقد ثبَتَّ أن المخلوقَ لم يزل مع الله عز وجل.

قال عبد العزيز: فقلت له: ليسَ لك أن تحكُمَ عليَّ وتُلزِمَني مالا يَلزَمُني، وتحكي عني ما لم أقل، إني لم أقل إنه لم يزل الخالق يخلق ولم يزل الفاعل يفعل؛ فيلزَمُني ما قلتَ، وإنما قُلتُ: إنه لم يزل الفاعِلُ سَيَفْعَلُ، ولم

---

(١) أي في الماضي بدون بداية.

يَزَلِ الخالقُ سيَخْلُقُ، لأنَّ الفِعْلَ صفةٌ للهِ يقدِرُ عليه ولا يمنعهُ مِنه مَانِعٌ[١].

قال بشر: أنا أقول إنَّه أحدث الأشياء بِقُدرَتِه، فقل أنت ما شئت.

قال عبد العزيز: فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين، قد أقر بشر إن الله كان ولا شيء مَعَه، وأنه أحدثَ الأشياءَ بعد أن لم تكُنِ شيئًا بقُدرته، وقلتُ أنا إنه أحدثها بِأمرِه، وقولُه عَن قُدرَتِه، فلن يخلُ -يا أمير المؤمنين- أن يكونَ أوَّلَ خَلقٍ خَلَقَه اللهُ تعالى بقولٍ قاله، أو بإرادَةٍ أرادَها، أو بِقُدرَةٍ قدرَها، فأيُّ ذلكَ كان فَقَدْ ثَبَتَ أن هاهنا إرادةً ومُريدًا ومُرادًا، وقولًا وقائلًا ومَقولًا، وقُدرةً وقادِرًا ومَقدورًا عليهِ، وذلك كلُّه مُتَقَدِّمٌ قبلَ الخَلقِ، ومَا كانَ قبل متقدمًا

(١) وجه الحجة هنا أن الله تعالى إذا كان لم يخلق ثم خلق، فإن هذا لا يعني أنه اكتسب صفة جديدة وهي الخلق، فصفته هذه غير مخلوقة، وفِعلُه الذي هو فعلُ الخلقِ حينَ خَلَقَ لم يكن ذلك الفِعلُ مِنه مخلوقًا، وكذلك فإنه إذا بكلَّامٍ حينَ تكلَّم فإنَّ كلامه غيرُ مخلوق. وأصل الجهمية الكبير أنهم يقولون إن كل ما كان بعد أن لم يكن فإنَّه مخلوق، وعلى هذا فإنهم قالوا إن القرآن مخلوق، وعندما ألزمهم أتباع الأنبياء بلوازم، كقولنا لهم: قال الله ﴿لقد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها﴾ أَسَمِعَه قبل أن يخلقها؟ قالوا «نعم» قلنا وقوله ﴿ولقد خلقتك من قبل ولم تك شيئًا﴾ أقال: ﴿ولقد خلقتك من قبل﴾ قبل أن يخلقه؟ فقالوا «نعم»! كل ذلك لأنهم لو أقروا أن الله فعل فعلا لم يكن فعله من قبل؛ فهذا دليل عندهم أن الله مخلوق! وهذا الذي علمتهم اياه الفلاسِفة وضحكوا عليهم به، فوالله لم أنهم تعلموا أصوات البهائم لكان خيرًا لهم من أن يتعلموا هذه الفلسفة التي ظنوها عِلمًا، فأخرجتهم مِن الدين. وسيحتج عليهم عبد العزيز الآن بأنَّه إذا لم يكن فعله الذي فعله بقدرته مخلوق؛ فكلامه الذي تكلَّم به بقدرته غير مخلوق أيضًا.

فلَيسَ هو مِنَ الخَلقِ في شيءٍ.

قال عبد العزيز: ثم قلت: يا بشر، من ادعى للعلم ولم يحوه فحظه منه الجهل.

كَسَرتُ واللهِ -يا أمير المؤمنين- قولَ بشرٍ، وَدَحَضتُ حُجَّتَه بإقرارِه بلِسَانِه، فقد كسرتُ قوله بالقُرَان والسنةِ واللغةِ العربية، والنظرِ والمعقولِ، ولم يبق إلا القياس، وأنا أكسره بالقياسِ إن شاء الله تعالى.

[فصل: كسر قولهم بالقياس]

قال عبد العزيز: وكان المأمونُ قد جَلَسَ منَّا مقعَد الحاكم مِنَ الخصمَينِ، فقال المأمون: هاته يا عبد العزيز في القياس وأوجِزه.

فقلتُ: يا أميرَ المؤمنينَ، لو كان لبِشرٍ غُلامَان، وأنا لا أجِدُ علمهما من أحَدٍ مِنَ النَّاسِ إلا مِن بشر. يُقال لأحدهما: خالدٌ، وللآخر: يَزِيدُ، وكانَ بشرٌ غائِبًا عني، فكتب إليَّ ثمانيَةَ عشرَ كتابًا يقول في كُلِّ كتابٍ منهَا: «ادفع إلى خالدٍ غُلامي هذا الكِتابَ» وكَتَبَ إليَّ أربَعَةً وخمسين كتابًا يقول في كلِّ كتابٍ منها: «ادفع إلى يزيدَ -ولم يقل: (غلامي)- هذا الكتاب»، ثم كتب إلي كتابًا جمعهما فيه فقال: «ادفع إلى خالدٍ غُلامِي، وإلى يزَيد هذا الكتابَ -ولم

يقل: (يزيد غلامي) » ثم قّدَمَ بِشرٌ مِن سَفَرِه، فقال لي: «أليس تعلم أن يزيدًا هذا غلامي؟» فقلت له: «قد كتبتَ إليَّ أربَعَةً وخمسينَ كِتَابًا تقولُ في كُلِّ كتابٍ منها (ادفع هذا الكتاب إلى يزيد) ولم تقل (غلامي) ولم أسمعْكَ تقول إنه أحدُ غُلامَيكَ، وأنا فلم أجد علمَه عن أحدٍ غيرك، وكتبتَ إلي ثمانية عشر كتابا تقول في كل واحد منها: (ادفع إلى خالدٍ غلامي هذا الكتاب) فعلمتُ إنه غلامُك، ثم كتبت إلي كتابا جمعتهما فيه فقلت: (ادفع إلى خالدٍ غلامي هذا الكتاب، وإلى يزيد) ولم تقل: (غلامي) فَمِنْ أينَ أعلمُ أنَّ يزيدًا غلامُك وأنت لم تَقُل لي قبلَ هذا الوقتِ إنه غلامُك فمن أين أعلمُ خبرَهُما مِن غيرك؟ فقال: بشر «فَرَّطْتَ[١]» فحلفتُ أنا أن بِشرًا فرَّطَ. وحلفَ بشرٌ أني أنا فرَّطتُ حيثُ لم أعلمْ أنَّ يزيدًا غلامُه مِن كُتُبِهِ، فأيُّنَا المُفَرِّطُ يا أمير المؤمنين؟

فقالَ المأمون: بِشرٌ واللهِ هو المُفَرِّطُ.

فقال بشر: وأيُّ شيءٍ هذا مما نحن فيه؟

قال عبد العزيز: إن الله أخبر في كتابِهِ عن خَلقِ الإنسانِ في ثمانِيَةَ

---

(١) قصَّرتَ في كونه لم تعطِه ليزيدَ.

عشرَ موضعًا، ما ذَكَرَه في موضع منها إلا أخبرَ عَن خَلقِه.

قال عبد العزيز: إن الله أخبر في كتابِهِ عن خَلقِ الإنسانِ في ثمانِيَةَ عشرَ موضعًا، ما ذَكَرَه في موضع منها إلا أخبرَ عَن خَلقِه.

عشرَ موضعًا، ما ذَكَرَه في موضع منها إلا أخبرَ عَن خَلقِه.

ثم جَمَعَ بينَ القُرَان والإنسانَ في مَوضعٍ واحِدٍ وأخبَرَ عَن خَلقِ الإنسانِ، ونَفَى الخَلق عن القُرَان، فقال عز وجل: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٢﴾[الرحمن ١-٣] ففرَّقَ بينَ القُرَان وبين الإنسانِ في موضع واحد، فزَعَمَ بشرٌ يا أميرَ المؤمنينَ أن اللّهَ عز وجل فرَّطَ في الكتابِ، وكان يَجِبُ عليهِ أن يُخبر عن خلقِ القُرَان، وقال الله عز وجل: ﴿فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٍۚ﴾[الأنعام:٣٨]

فهذا كَسرُ قول بشرٍ بالقياس.

فقال المأمون: أحسنت أحسنت يا عبد العزيز.

ثم أمر لي بعشرة آلاف درهم، فحَمَلْتُ بينَ يَدَيَّ وانصرفتُ مِن مجلِسِهِ على أجمل حالٍ وأحسنها، قد أعزَّ اللّهُ دينَ الإسلامِ، وعز أهلُه، وأذلَّ الكُفرَ وأهلَه فله الحمدُ والشكرُ على نِعَمِه كلِّهَا، وعلى منه وتوفيقِه وتسديدِه.

[ما جرى له بعد المناظرة]

قال عبد العزيز: فسُرَّ المُسلِمُونَ جميعًا بِمَا وهَبَهُم اللهُ من إظهارِ الحَقِّ وقَمعِ الباطِلِ، وانكَشَفَ عن قُلوبِهِم ما كان قد اكتَنَفَها من الغَمِّ والهَمِّ والحَزَنِ، وجعل الناسُ يجيئونَ إليَّ أفواجًا حتى أغلَقتُ بابي واحتَجَبْتُ عنهُم خوفًا على نفسِي وعليهِم مِن مكروهٍ يلحَقُنَا، فقالوا: لابُدَّ أن تُملي علينا ما جرى لنعرِفَه ونَتَعَلَّمَه، فنهَيت عن ذلكَ، وتَخَوَّفْتُ سُوءَ عاقِبَته، فلَمَّا ألَحُّوا عليَّ؛ قلتُ: أنا أذكر لكم بعضَ ما جرى مما لا يكونُ عليَّ حجةٌ في ذِكرِه(١)؛ فرضوا بذلك، فأمليتُ عليهِم أوراقًا يسيرةً مِقدارَ عشرِ أوراقٍ مُختَصَرَةً ممَّا جرى لأقطَعَهُم بِها عني وعن مُلازَمَةِ بابِي، ولم يتهيَّأ لي شرحُ هذا كلَّه لِمَا تخوَّفتُ على نفسي مما يلحقُني بعضُه، وأنا أذكُرُ ما لحِقَني بعدَ هذا المجلسِ وما جرى عليَّ بسبب تلك الأوراقِ التي كتبَها الناسُ عنِّي في كتابٍ مُفرَدٍ بعدَ هذا إن شاء الله تعالى(٢).

والحمـــــــــد لله وحـده

وصواته على محمد نبيه

---

(١) مما لا يُغضِب عليَّ الأمير فيُؤذيَني.

(٢) هنا كلام جعلته في فصل [إنكار جهمي علم الله..]

وآله وصحبه

الكتاب الثاني

من الحيدة والاعتذار

[تحريض الجهميَّة المأمونَ على عبد العزيز]

[قال عبد العزيز:] وها أنا أذكر ما جري لي بعد هذا المقام مما تطيشُ فيه الأحلامُ وينقطع الكلام، وبالله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظم، والحمد لله وحده

قال عبد العزيز بن يحي الكناني:

ثم انصرفت من مجلس أمير المؤمنين المأمون في اليوم الذي جري بيني وبين مجلس بشر بن غياث المريسي ما جري في القُرَان وما أظهر الله تعالى من كسرِ قولِه ودحضِ حجته وبطلان مذهبه، ووقف أمير المؤمنين وسائر الأولياء وأهلُ الفقه والقُرَان وأصحابُ الحديثِ ومَن بحضرة مدينة السلام[(١)] من سائر الناس على ذلك، وما أعز الله به الإسلام وأهلَه وأذل

---

(١) يعني: بغداد.

الكفرَ وأهله وجميعَ أهلِ الضلالة والرَّدَى والدعاةِ إلى مخالفةِ الإسلام ونقض أخبار القُرَان والتشبيه على عباد الله تعالى، فَقَوِيَت قلوبُ المؤمنين، وظهر سرورهم، وعلا الحقُّ وظَهَرَ به القولُ، وامتَحقَ الباطلُ وأُخفي به الصوتُ، وكَبَتَ الله عز وجل أعداءه

قال عبد العزيز: وصار إليَّ جماعةٌ من الإخوانِ والشركاءِ في الدِّينِ فسألوني أن أُمليَ عليهِم ما جري بيني وبين بِشرٍ المَريسي، ليتعلموه ويتعارَفُوه ويُشيعوهُ ويكتبوا به إلى الأمصار، فدفعتُهم عن ذلك، وأعلمتُهُم ما عليَّ فيه = وما أتخوفُّه على نفسي من أمير المؤمنين إن بلغَه ذلكَ، وأعلمتهم أن عامة من بحضرته قد اغتم بما جري من إعزاز الله لدينه وتسديده إياي وتوفيقه لي، وما انصرفتُ عليه من جميلِ الحال، وإنهم لا يَدَعُونَ التسببَ إليَّ بمكروهٍ بكل ما يجدون السبيل إليه، وإن هذا مما يتهيأُ لهم به كل شيء، يرونه من التشنيعِ والإغراءِ بِي = فدفعتهم عن ذلك فأبوا عليَّ، وقالوا: «هذا مما لا يَحِلُّ كِتمانُه ولا سَترُه، إذ كان الخَلقُ في حَيرة لا يعرفون ما الحُجَّة فيما هم مُتمَسكونَ به مِن الحقِّ، ولا كسرَ أهلِ الباطِل والضلال ودحض حجتهم» وأكثروا عليَّ ولم يَدَعُوني حتى أمليتُ عليهم بعضَ ما جرى بيني وبين بِشرٍ وحذفتُ أكثرَ المجلِس وعامةَ الكلام، واقتصرتُ على بعض ذلك ليقِلَّ التشنيعُ عليَّ، وكتبَه عني خلقٌ كثيرٌ، وكتبهُ قوم عن قومٍ، وشاع وذاعَ وكثُر في أيدي الناسِ، وكُتِبَ بهِ إلى سائر البلدان والأمصارِ، وظَهَر القولُ بِه،

واتصلت بهم الأخيار[١]، فشقَّ ذلك على بِشرٍ المريسي وأصحابِه وسائرِ مَن يقول بقولِه ويعتقدُ مذهبَهم، وغلُظَ عليهم وعظُم عندَهم ما ظهر للناسِ من كَسرِ قولِهم ودحضِ حجتهم وفضيحةِ مذهبهم، فاجتمعوا عليَّ وتآمروا وتشاوروا فيما قد نزَل بهم، فاجتمع رأيُهُم على إعلامِ أميرِ المؤمنينَ وإغرائِه[٢] بي، واستعدُّوا لِيومِ مجلسِه الذي يجلسُ فيه في بيتِ الحكمة = وكان له مجلسٌ في كل جمعة يجتمع فيه أهلُ الحديثِ والفقهِ والعَربية، وأهلُ النظر وأصحابُ الكلام، ويقعدُ المأمونُ مِن وراءِ السِّترِ بحيث يسمعُ كلامَهم ومناظرتهم لبعضهم البعض، ولا يخفى عليه منها شيء = فاجتمعوا جميعًا على رأيٍ واحدٍ، فلمَّا تكامَلَ بهِم المجلس وقعدَ أميرُ المؤمنينَ حيث كان يقعد؛ أمرهم الخادمُ بالكلام حسبَما كان يفعلُ قبل ذلك اليوم، فقالوا جميعا: «يا أمير المؤمنين -أطال الله بقاءك- لم يبقَ فينا للكلامِ موضعٌ لِمَا قد لحقَنا في أنفسنا من المَكروهِ والذُّلِّ وتوثُّبِ العامةِ علينَا ونداءَهُم علينا في المساجد والأسواق والمواضع والطرق، وقد ضاق هذا البلد مع سعته علينا

فقال لهم المأمون: ومِمَّ ذلك؟

---

(١) أي وصل إليهم.

(٢) الإغراء هو التحريش والاستعداء.

فقالوا له: يا أميرَ المُؤمنين، مما يفعلُ ذلك الجاهلُ عبدُ العزيزِ المكي، فإنه خرجَ من مجلسِ أمير المؤمنين -أطال الله بقاءه- واجتمع عليه العوام والغوغاء واللَّفيفُ، فأملى عليهم ما جري في مجلسِ أمير المؤمنين، وزاد عليه مثليه مما لم يكن، ولَم يزَل يتجمَّلُ عندَهُم ويتسوَّقُ ويقول بين كلِّ كلمتين: «قال لي المأمون» و«قلت للمأمون» و«قال لي بشر» و«قلت لبشر» ولا يفرق بين أمير المؤمنين وبين غيره بدعاء لأمير المؤمنين، ولا يذكر الخلافة وجلالتها ولا يذكر اللقب[1]، فأزال هيبة أمير المؤمنين من قلوب الرعيَّة وأغراهم بسائرِ أوليائه وخدَمه وحَشَمِه، وجميعِ أهل النظر مِن أوليائه وعبيدِه، وأمرَهَم أن يشيعوا ذلك ويذيعوه ويكتبوا به إلى سائر الأمصار، ووضع لنفسه كتابًا ترجمَه[2] «كتابُ الحَيدَة» وأقعَدَ جماعةً من الورَّاقينَ في مسجدِه فنسخوه للناس نُسَخًا.

ولم يزالوا يُكثرون عليه ويغَلِّظونَ بقلبِه ويُعظِّمون الأمر عنده حتى أغاظَه ذلكَ، فأمر بعضَ الخَدَمِ بإحضاري، فجاءني الخادم ومعه جماعة، وقد

(١) يريدون أن يحرِّضوه عليه بأن يقولوا أن عبد العزيز يتكلَّمُ عن المأمون كما يتكلم عن عامة الناس، فلا قول عنه «أمير المؤمنين» أو «الخليفة»

وهذه عادة أهل الباطل في استعداء السلاطين على أهل الحقِّ.

(٢) ترجمه: أي سمَّاه.

كنتُ قبل ذلك استترت في بيتي، وأغلقتُ بابي ومنعتُ الناسَ من المجيء إليَّ، فلم يوافق مجيئه أحدا على بابي ولا في مسجدي، فدق علي بابي، فأعلمت بمكانه فخرجت إليه مسرعًا، فقال: «أجب أمير المؤمنين» فقلت: «السمعُ والطاعة لأمير المؤمنين» وكنتُ مُتَرقبا لذلك ومتخوفًا مِنها، فركبت معه فصِرتُ إلى دار أمير المؤمنين، فأدخلني وقد جلس أمير المؤمنين وهم بحضرته في بيت الحكمة، فلما رأيته أنكرتُ وجهَه وعلمتُ أنه مُغضَبٌ.

[استجواب المأمون لعبد العزيز]

فلما صرتُ بين يديه أقبل علي وقال: يا عبد العزيز، تُخرجُ خبري، وتتحدَّثُ عمَّا كان في مجلسي، وتَتَفَكَّهُ بذِكري، وتقول: «قال لي المأمون» و«قلتُ للمأمون»[1] وتزيدُ في القولِ عليَّ، وتضعُ الكُتُبَ، وتجمَعُ العوام وتغريهم بأوليائي[2]، وتكفرُهم وتذكر كسرَ قولِهم وبُطلانَ مذهبهم، وإنما كان ذلك لِمَا أظهرتُه من تقريبكَ وإيناسِك وتصديقِكَ وتخييرِ كلامك ومنعِ المناظرين من إقامة الحجة عليك، وإنما جرى الكلامُ في جزء من أجزاء كثيرةٍ مما عندَهُم، ومما يقولونُ أنهم يكسرونَ به قولكَ ويدحضونَ به

---

(١) أي تتكلم عن الأمير وكأنك صاحبه.

(٢) أي: تحرضهم على جلسائي كبِشرٍ وأمثاله.

حجتك، [ولو عدلتُ عمَّا ظهر لك مني لَمَا انطلَقَ لسانُك][١] ولا انشرح صدرُك ولَتَدَعْدَعَ(٢) ما في قلبُك، ولَوَقرَ في قلبك من الرِّيبةِ ما يُنسيكَ حُجتك ويذهب بفهمك، ولكني بسطتُ لك حتى أنِستَ إلى بَسطي، وقويت على خصمك بِعَدلي ودقةِ فَهمي ومعرفتي بلُغةِ قَومي، فضربتَ خصمك بسيفي، وظهرتَ عليهِ بظهورِ إقبالي عليكَ، أفكان هذا جزاءً منك بجميل فعلي، أم كُفرانًا لنعمتي، أم جراءةً منكَ على عُقوبتي، أم اغترارًا منكَ بقديمِ حِلمي وصفحي عما كان من عظيم زلَّتِكَ الأولى من قِيَامِكَ في المسجدِ الجامع والقول بخلاف مذهبي؟

فقلت: يا أميرَ المؤمنين أطال الله بقاك، شأني أصغرُ مِن هذا، وأنا بنفسي أحقرُ من أن أتعرضَ لمخالفة أمير المؤمنين والخروجِ عن أمره ونهيه.

وإنَّ اللّهَ تعالى -وله الحمد- اختار الخفاءَ لِخَلقِه ولإقامةِ دينه والذَّبِّ عن محارمِه والاتباعِ لأمره والاجتنابِ لنَهيه، والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المُنكَر، وَوَصَفَهُم في كتابِه وعلى لسان نبيه محمد ﷺ بأحسن صفة، وأثنى عليهم بأجمَل الثناءِ، وخصهم بأكرم الأخلاق وأظهرها وأشرفها وأرفعِها،

---

[١] الكلام في المخطوط غير مفهوم.

(٢) الدعدعة: تحريك الإناء وهزُّه لكي يرسخ ما في داخله فيه وينضغط.

فقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾[النور:٥٥]

وقال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٣٩﴾[الحج:٤١] فأخبر جل ذكره عن وعده الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن يستخلفهم في الأرض، فسبقت الصفة لهم والثناء عليهم قبل استخلافهم فثبتت بذلك الحجة من الله لهم ثم شهد لهم بما يكون منهم بعد استخلافهم، فهو مما هو موافق لما تقدم من إعمال الصالحات التي أجملها في وصفهم فقال جل وعز: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾[الحج:٤١] فشهِدَ لهم بما يكون من أعمالهم بعد استخلافهم، وكان ذلك موافقا للخبر الذي قدمَه لهم قبل استخلافهم فثبتت الصفةُ مِن اللهِ لهم قبل استخلافِهم وبعد استخلافهم، فمن أصدقُ من اللهِ قيلا، ومن أصدق من الله حديثا[١].

(١) وهذا الكلام الذي قاله الشيخ عامٌّ يظهر أنَّه يعرِّضُ به لاسترضاء المأمون، لأن الآيات ليست في الشهادة

=

ثم قال تبارك وتعال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾[النساء:٥٩] فأمر المؤمنين جميعًا بطاعتهم، وتعبَّدهم[١] بها وأوجبها عليهم وقرنها بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، وجعلها نظامًا واحدًا لم يفرِّق بين ذلك بشيءٍ، فمن أطاع أولي الأمرِ فقد أطاعَ اللهَ عز وجل، ومَن عصاهم فقد عصى الله عز وجل، وبذلكَ أمرَ رسولُ الله ﷺ في أحاديث كثيرة صحتِ الروايةُ عنه فيها، وطاعةُ أمير المؤمنين على الخلقِ مفترضَة واجبةٌ، ومن خَرَجَ عنه فقد خَلَع ربقَة الإسلام مِن عنقه[٢]

[مما ذكر للمأمون في النَّسَبِ الشَّريف]

للحكام بالصلاح، بل قال الله تعالى ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ﴾ الآية، وهذه وعدٌ لِمن آمن وعمل الصالحات بأن يُستخلف، وليست وصفًا لكلِّ مَن استُخلِف، وفي الآية الأخرى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ۝٤١﴾ [الحج: ٤٠-٤١] فالآية وعد بنصر مَن هذه صفته، وليست وصف مَن تولّى الحكم. وإلا فقد تولّى الحكم زنادقةٌ على مرِّ التاريخ، والمأمون مِنهم. ولهذا كان كلام عبد العزيز عامًا في الخلفاء، ولعله قصد الصالحين، وساقه بهذا السياق استرضاءً للمأمون واجتنابًا لشَرِّه.

(١) الله تعبَّدنا بكذا: أي جعل ذلك الأمر بالنسبة لنا عبادة أمرنا بها.

(٢) الرِّبقة: هي الحبل الذي يُربَطُ في العنق، فمَن خلعَ رِبقَةَ الإسلامِ؛ فقد تَرَك التَّبعةَ له، وفارَقَ جماعةَ المسلمين.

وروى زيد بن أرقم عن النبي ﷺ انه قال «إني تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوضَ»[١]

وقال أبو سعيد الخدري سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «ما بال رجال يقولون إن رحم رسول الله ﷺ لا تنفع قومَه، بلى والله، ان رحمي موصولة في الدنيا والاخرة»[٢]

وقال جعفر بن محمد عن ابيه قال: خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: «لا تهنوني؟ فقلنا: بماذا قالت تزوجت بنتَ بنتِ رسول الله ﷺ(٣) وسمعت رسول الله ﷺ يقول: (كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة الا نسبي

---

[١] رواه مسلم (٢٤٠٨) عن زيد بن أرقم بلفظ مختلف وهو: وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: «أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ» فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللهِ وَرَغَّبَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَأَهْلُ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي»

قال السندي: الثَّقَل: بفتحتين: كل شيء نفيس مصون.

[٢] رواه أحمد (١١١٥٤) وقال شعيب: «صحيح لغيره» ورواه الحاكم (٧١٥٣) وقال: «هذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاه» وقال الذهبي: «صحيح»

(٣) وهي أُمَّ كُلْثُومٍ بنت علي وفاطمة.

وسبي)» [١]

وقال أبو هريرة -رضي الله عنه-: «كانت امرأة من بني هاشم عند رجل من قريش، فقال لها ذات يوم: والله لا تغني عنك قربتك من رسول الله ﷺ شيئا، قال: فجاءت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته، فصعد المنبر مغضبا فقال: ما بال اقوام يزعمون أن قرابتي لا تغني شيئا، فوالذي نفسي بيده إنه لترجو شفاعتي صُدَا وَسَلْهَبُ(٢)» [٣]

فهذه رحِمُ أمير المؤمنينَ، وهذا نسبه وقرابته الموصولة في الدنيا

---

[١] رواه عبد الرزاق (١٠٣٥٤) وسعيد بن منصور (٥٢٠) بإسنادين منقطعين، ورواه أحمد في فضائل الصحابة (١٠٧٠) وفي إسناده بشر بن مهران وقد تركه أبو حاتم.

(٢) صُدَا وَسَلْهَبُ: حيَّان مِن أحياء اليَمَن. والمعنى: هؤلاء سيرجون شفاعتي فكيف بأقارِبي! كما جاء عند الشجري في ترتيب الأمالي: «أَتَرْجُو سَهْلَبُ شَفَاعَتِي وَلَا يَرْجُوهَا بَنُو عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»

[٣] والحديث إلى قوله «يزعمون أن قرابتي لا تغني شيئا» ذكره الهيثمي في مَجمَع الزوائد (١٣٨٢٧) وقال: «رواه البزار وفيه إسماعيل بن يحي بن سلمة بن كهيل وهو متروك»

ورواه ابن عَدي في الكامل في ترجمة عَبد الله بن جعفر بن نجيح، وقال: وقال عَمْرو بن علي، وَعَبد الله بن جعفر بن نجيح أبو علي المديني ضعيف الحديث.. وقال النسائي عَبد الله بن جعفر بن نجيح والد علي بن المديني متروك الحديث.

وأما الجملة الأخيرة فقد ذكرها الهيتمي، وقال: «وفيه عبد الرحمن بن بشير الدمشقي وثَّقه ابن حِبَّان، وضعْفه أبو حاتم؛ وبقية رجاله ثقات»

والآخرة

وقال عبد الملك بن الحارث بن نوفل: لقيني أبو هريره رضي الله عنه، فأخذ بيدي ثم قال: يا ابن الحارث إن لي اليك حاجه، قال قلت: وما حاجتك يا أبا هريرة، قال: أحب أن تضمنها لي، قال قلت وما هي قال قلت: أن تشفع لي يوم القيامة، قال قلت رحمك الله تقول هذا وأنت صاحب رسول الله ﷺ قال إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لكل رجل من ولد عبد مناف شفاعة يوم القيامة»[١]

وقال عبد الله بن عباس جاء فتيان من بني هاشم إلى النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله صلى الله عليك استعملنا على الصدقة حتى نصيب منها كما يصيب غيرنا، فقال النبي ﷺ: «إنا آل محمد لا تحل لنا الصدقة ولكن إذا دفعت إلى مفاتيح الجنان فهل تروني أوثر عليكم أحدا» [٢]

وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين؛ كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل

---

[١] في نسخة: عبد المطلب. ولم أجده.

[٢] قال العقيلي في الضعفاء الكبير ج٢ص٢٣٩: «أَمَّا أَوَّلُ الْحَدِيثِ فَقَدْ رُوِيَ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ، وَآخِرُهُ لَا يُحْفَظُ إِلَّا فِي هَذَا الْحَدِيثِ» وذكره في ترجمة عبد الله بن جعفر بن نجيح.

بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض»[١]

ولما استشهد حمزة بن عبد المطلب قال رسول الله ﷺ: لم يبقى على وجه الأرض مؤمن بين النبيين إلا العباس وهو عمي وهو ابن إسماعيل ابن إبراهيم، فلم يكن في الامه كلها مؤمن بين نبيين إلا حمزة والعباس عمَّي رسول الله ﷺ»[٢] وهما ابواه وهما ابنا إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وسبطان في اطهر نسب، [...][٣] في ارفع بيوتات العرب.

وقال عكرمة: أتى العباس بن عبد المطلب النبي ﷺ فقال يا رسول الله لو اذنت لي فأتيت قريشًا فدعوتهم فأمنتهم وجعلت لابي سفيان شيئا يذكر به، فانطلق العباس فركب بغلة النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «ردوا على أبي فإنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ، فاني اخاف أن تفعل به قريش ما فعلت ثقيفُ بعروة بن مسعود، دعاهم إلى الله تعالى فقتلوه، ثم قال: اما والله لئن

---

[١] رواه أحمد (١١٢١١) وقال شعيب الأرنؤوط: «حديث صحيح دون قوله: "وإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض» ورواه الحاكم (٤٥٧٦)

قال السندي: الثَّقَل: بفتحتين: كل شيء نفيس مصون.

[٢] لم أجده.

[٣] كلمة غير مفهومة.

ركبوها لأضرمنها عليهم نارا»[١]

وقال ابن عمر رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق سماوات سبعًا، فاختار العليا فأسكنها من شاء من خلقه، وخلق الأرض سبعا فاختار العليا فأسكنها من شاء من خلقه من خلق بني آدم، ثم اختار بني آدم فاختار العرب، ثم اختار العرب فاختار مضر، ثم اختار بني مضر فاختار قريشًا، ثم اختار قريشا فاختار بني هاشم، ثم اختار بني هاشم فاختارني منهم، فلم ازل خيار من خيار»[٢]

وأمير المؤمنين اطال الله بقاءه من خيار الخيار، ثم اختاره الله عز وجل وارتضاه لخلقه، فصار خيار الخيار، فأتمَّ الله تعالى لأمير المؤمنين نعمه وسوغه إياها لشكره، وجعل ما قلَّده من هذا الأمر رشيدا وعاقبة ما يورثك الله حميدًا.

[مما ذكر للمأمون في العفو]

قال عبد العزيز: فرأيت المأمون قد اطرق(٣) يستزيدني من الكلام وقد

---

[١] رواه عبد الرزاق (٩٧٣٩) ابن أبي شيبة (٣٦٩٠٢) وهو

[٢] قال أبو حاتم الرازي: «هَذَا حديثٌ مُنكَرٌ» [«العلل» لابن أبي حاتم ج٦ص ٤٠٢ ت الحميد]

(٣) أطرق: سكت.

سكن غضبه، وأحبَّ ان اتكلم بما يُخرج ما في نفسه، فجعلت أتكلمُ بما يجري على لساني ويوفقني الله تعالى له

فقلت: قال الله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾[النور:٢٢]

وقال الله تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾[آل عمران:١٣٤]

وقال تعالي: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ﴾[البقرة:٢٣٧]

وقال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾[الأعراف:١٩٩]

فلما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ، خرج وهو يقول: «أمرني ربي أن آخذ العفو ان من اخلاق الناس»[١]

---

[١] في صحيح البخاري (٤٦٤٤): نْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: «أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَأْخُذَ العَفْوَ مِنْ أَخْلاَقِ النَّاسِ، أَوْ كَمَا قَالَ»

وقال تعالى فمن عفا وأصلح فاجره على الله

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال رسول الله ﷺ: «من كظم غيظا ولو شاء ان يمضيه امضاه ملا الله يوم القيامة قلبه رضا»

وقال أبو هريره رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «من كظم غيظًا وهو يقدِر على إنفاذه؛ ملأه الله أمنا وإيمانا»[١]

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «ما جرع عبد جرعةً أعظمُ أجرًا عند الله من جُرعة غيظٍ كظمها ابتغاء وجه الله عز وجل»[٢]

وقال عبد الله بن عباس قال رسول الله ﷺ: «ان لجهنم بابًا لا يدخله

---

[١] قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (ص١٠٧٢): حَدِيث «من كظم غيظا وَلَو شَاءَ أَن يمضيه أَمْضَاهُ مَلأ الله قلبه يَوْم الْقِيَامَة رضَا» وَفِي رِوَايَة «أمنا وإيمانا» أخرجه ابْن أبي الدُّنْيَا بالرواية الأولَى من حَدِيث ابْن عمر وَفِيه سكين بن أبي سراج تكلم فِيهِ ابْن حبَان وَأَبُو دَاوُد بالرواية الثَّانِيَة من حَدِيث رجل من أَبنَاء أَصْحَاب النَّبِي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسلم عَن أَبِيه، وَرَوَاهَا ابْن أبي الدُّنْيَا من حَدِيث أبي هُرَيْرَة وَفِيه من لم يسم.

[٢] رواه ابن ماجه (٤١٨٩) قال الألباني: «صحيح»

إلا من شفا غيظه بمعصية الله تعالى»[١]

وقال انس بن معاذ الجهني قال رسول الله ﷺ: «من كظم غيظا وهو يقدر على أن ينفذه؛ دعاه الله تعالى على رؤوس الخلائق يخيره في أي الحور شاء»[٢]

وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه مرَّ رسولُ الله ﷺ وناس يتجاذبون مهراسا(٣) فقال: «أتحسبون أن الشدة في حمل الحجارة إنما الشدة أن يملئ أحدكم غيظا ويغلبه»[٤]

وقال الشعبي: «لم يعرف قدرَ الأئمةِ من لم يُجَرَّعْهُ الحِلمُ غُصَصَ الغيظ»

وقال علي بن زيد بن جُدعان: أغلظ رجل من قريش لعمر بن عبد العزيز فاطرق عمر طويلا، ثم قال: «أردتَ أن يستفزني الشيطان بعزِّ

---

[١] قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (ص١٠٤١): «أخرجه الْبَزَّار وَابْن أبي الدُّنْيَا وَابْن عدي وَالْبَيْهَقِيّ وَالنَّسَائِيّ من حَدِيث ابْن عَبَّاس بِسَنَد ضَعِيف.»

[٢] رواه أحمد (١٥٦٧٥) وقال شعيب الأرنؤوط: «إسناده حسن»

(٣) المِهْراس حَجَر مستطيل منقور يُتَوضأُ منه ويدق فيه.

[٤] رواه ابن المبارك في الزهد (٧٤٠) وقال الألباني: «ضعيف»

السُّلطانِ، فأنال منك اليوم، ما تناله مني غدًا»[١]

وقال عبد الله بن عمر قال رجل لعمر بن الخطاب رحمه الله: «واللّهِ ما تقضي بالعدل، ولا تُعطي الْجَزْلَ» فغضب عمر حتى عُرف في وجهه الغضب، فقال له رجل في جنبه: «يا أمير المؤمنين ألم تسمع الله يقول: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف:١٩٩] وهذا من الجاهلين(٢)» فقال عمر: «صدقت صدقت، قد عفوت قد عفوت»[٣]

وقال النبي ﷺ: «إن الله يحب الحليم الحيي الغني»[٤]

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنه: «الحليم محببا في الناس مسوَّدٌ

---

[١] رواه ابن قتيبة في «عيون الأخبار» (ص٤٠٥) وأسنده ابْنُ الآبَنُوْسِيّ البَغْدَادِيُّ «مشيخة الآبنوسي»(١١٢) بإسناد غير ثابت، لكنها قصة مشهورة.

(٢) الجاهل معلوم، وهي تستخدم فيمن يتصرَّف تصرفاتٍ هوجاء.

[٣] رواه عبد الرزاق في الكتاب المطبوع باسم «جامع معمر بن راشد» (٢٠٩٤٦) وإسناده صحيح.

[٤] رواه ابن أبي شيبة (٢٥٣٤٤) بلفظ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْحَيِيَّ الْعَفِيفَ الْحَلِيمَ، وَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ السَّائِلَ الْمُلْحِفَ» مرسل. ورواه غيره من طرق أخرى غير ثابتة، وقال العراقي في «تخريج أحاديث إحياء علوم الدين» (٣١٤٨): «رواه الطبراني من حديث فاطمة وللبزار من حديث أبي هريرة إن الله يحب الغني الحليم المتعفف وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه»

في الدنيا مرضي القول عند الله تعالى»[١]

وقال عبد الله بن عباس: «الحلماء قليل والجهال كثير، فمن رد الجهل بحلم فقد اخذ بالفضل والأجر، وبُشِّر بالتي يرجى ذخرها وتحمد عاقبتها، ومَن رد الجهل بجهلٍ مثله فقد انتصر»[٢]

وقال الشعبي: «ما رأيت الله تعالى نَحَلَ في كتابه نَحلًا(٣) هو خير من الحِلم، إذ يقول: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ١١٥﴾ [التوبة: ١١٤]

وقال بعض الخلفاء: «إني لأرفع نفسي أن يكون لاحدٍ عندي ذنبٌ لا يسعُه عفوي، أو جهلٌ لا يسعُهُ حِلمِي، أو عورةٌ لا يسعها ستري»

وقال الاحنف بن قيس(٤): «يا أبا بحر، ما احلمَك!» فقال الأحنفُ: «تعلمتُ الحلم من قيس بن عاصم، بينما هو ذاتَ يومٍ في مجلِسِه مُحتبِيًا

---

[١] لم أجده.

[٢] لم أجده.

(٣) نحل نحلا: أي أعطى عطيَّة.

(٤) هو الأحنف بن قيس بن معاوية التميمي ت٦٧هـ أو ٧٢هـ وهو مِن كبار التَّابعين، ثقةٌ في حديثه، وكان مِن أشرَافِ بني تميم، وممن سارت أخباره في الحِلمِ والفصاحة والشَّجاعة، بل كان مضرِبَ مَثَلٍ في الحِلم.

بِردائه يُحَدِّثُ القومَ؛ إذ أوتي بِقَتِيلٍ ومَكتوفٍ، فقيلَ له: «هذا ابنك قتله ابن عمِّك هذا المكتوف» فما قَطَعَ حديثه، ولا حلَّ حَبْوَتَهُ، فلمَّا فرغ مِن حديثه التفت إلى ابن عمِّه، وقال له: (أما إنك ما أضررت إلا نفسك، عصَيتَ ربَّكَ وقطعتَ رحِمَك، ونقصتَ عددك[1]) ثم قال لابنٍ له: (قم فَوَارِ أخاكَ وحُلَّ كِتافَ ابنَ عمِّك، وسُق إلى أمِّكَ مئة ناقةٍ ديةَ أخيك)»[٢]

قال عبد العزيز: فرأيتُ المأمونَ قد مسحَ بيدِهِ على وجهه ونَظَرَ إليَّ؛ فعلِمتُ أنه قد رجَعَ وكَظَمَ غيظَه، ثمَّ أطرقَ؛ فعلمتُ أنَّه يستزيدُني مِنَ الكلامِ،

فقلت: قال عبد الرحمن ابن شبيب[٣]: حدثني أبي أنه كان يطوف حول بيت الله الحرام، فلحِقَهُ أبو جعفرٍ المنصورُ، فأخذ بيدِه، ومسك يده في يده فطافا جميعا، قال فقلتُ: «يا أمير المؤمنين أتأذنُ لي أن اكلمَك؟» قال: «هات» فقلتُ: «إن الله جل ثناؤه يومَ قسم أقسامَه لم يرضَ لك منها إلا بأعلاها وأسنانها، فلا تجعل فوقك أحدًا في الدنيا، ولا ترض لنفسِكَ -إذ لم يجعل

(١) أي أنقصت عدد أقاربِك الذين يؤازرونك في الشَّدائد.

[٢] رواه الجوهري (٨٠٤) في «المجالسة وجواهر العلم» (٣/ ١٦٥)

[٣] في المخطوط «بن شيب» وهذا خطأ. وهو عبد الرحمن بِن شبيب بن شيبة.

فوقكَ احدًا في الدنيا- أن يكونَ فوقَكَ في الآخرةِ أحد. [١] يا أمير المؤمنين، إن اللّهَ اعطاكَ الدنيا بأسرها، فاشتر نفسك من الله ببعضها. يا أمير المؤمنين اتق الله فإنها وصية الله اليكم جاءت، وعنكم قبلت، وإليكم ترد، يا أمير المؤمنين، إن الله لم يرض من آل داود عليهم السلام وقد نفلهم الدنيا ورفعهم فيها، فلم يجعل ما انفقوا إسرافا ولا ما أمسكوا كنزًا، يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ٣٩﴾[ص:٤٠] ثم لم يرضَ منهم مع ذلك كلِّه إلا بالشُّكر، فقال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾[سبأ:١٣] وإن شُكرَكَ في عبادِ الله ان تُحسن إلى مُحسِنِهِم وتتجاوز عن مُسيئِهِم وتحلُم عن جاهِلِهم.

وقال المباركُ بن فَضَالَةَ: إني لعند أبي جعفر المنصور إذا أوتي برجل فأمر بقتله فقُلتُ: «يقتل رجل وانا حاضر وهو من المسلمين»[٢] فقلت: يا

---

(١) الموعظة التالية إلى قوله «ببعضها» أسندوها إلى عمرو بن عُبيد المبتدع المعتزلي، كما في «أنساب الأشراف للبلاذري» (ج٤ص٢٣١) ولم أجد ما بعدها. وكان عمرو كان من رؤوسهم، وكان يظهر التنسُّك، وله مواعظ. وبمثِلِ هذا التنسُّكِ والتزهُّد وإظهار العِبادةِ يَروجُ أهلُ البِدَعِ عند الرُّعاع، فيغترون بإظهاره العبادة، أو بكونه لا مال له، حتى وجدت في زماننا ما لم أتوقعه، فعند تحذيري من بعض المبتدعة؛ يرد عليَّ بعض الناس بنقولات أن فلانا قال عنه أنه فصيح اللسان!

(٢) يكلِّم نفسَه.

أميرَ المؤمنين، ألا أحدثك بحديث سمعتُه من الحسن؟ قال: وما هو؟ قلتُ: سمعتُ الحسن يقول: «إذا كان يوم القيامة، جُمِعَ الناسُ في صعيدٍ واحدٍ، يُسمِعُهُم الداعي وَيَنْفُذُهُمُ البصر، فيقومُ منادٍ من عند اللهِ فيقولُ: (لِيَقُمْ من له عند الله يد)، فلا يقوم الا من عفا» فقال لي المنصور آللهِ[١] لسمعتَه من الحسن؟ قلت: آللهِ لسمعتُه من الحسن، قال: خلوا عنه، فخلى عنه. [٢]

وقال أحمد بن أبي بكر بن عبد الله بن الزبير: إني لَعند سليمان بن عبد الملك إذ دخل عليه أعرابي، فقال له سليمان: «تكلم يا اعرابي»، فقال: «يا أمير المؤمنين إني أكلمك بكلام فاحتمِلْهُ إن كرهتَه، فإنَّ وراءه ما تحبه إن قبلته» فقال له سليمان: «واللهِ يا أعرابي، إنا لنجودُ بسَعة الاحتمال على من لا نرجو نُصحه ولا نأمن عيبه، فقل» فقال: يا أمير المؤمنين إذْ أمنتُ بادِرَةَ غضبِك فسأُطلقُ لساني بما خَرِسَتْ الألسِنَة عن غضبك به تأديةً لحقِّ اللهِ وحق إمامتِك، يا أمير المؤمنين، إنه قد تكَنَّفَكَ رجالٌ اساءوا الاختيار لأنفسهم، فابتاعوا دُنياكَ بدينِهِم، ورضاكَ بسخطِ ربِّهِم، خافوكَ في اللهِ ولم يخافوا اللهَ فيكَ، حربٌ للآخرةِ وسِلمٌ للدنيا، فلا تأتمِنهم على ما ائتمنَكَ اللهُ

---

(١) «آللهِ» بمَدِّ الألف: استحلاف بالله، والحلف بالجواب عليه يكون بنفس الكلمة.

[٢] أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد ج١٥ص٢٧٩. إلا أنه في الزهد لأسد بن موسى (٨٠) و في سيرة الإمام أحمد بن حنبل، لابنه صالح (ص٦٥): «حَدثني من سمع الْحسن» وهو بكل حال مُرسَل.

عليه، فإنهم لم يألوا للأمانة تضييعًا وللأمة خسفًا وعسفًا، وأنتَ مسؤولٌ عما اجترحوا وليسوا بمسؤولين عما اجترحت، فلا تُصلح دُنياهُم بفسادِ دينِك وآخرتِك، فان أعظمَ الناسِ غَبنًا مَن باع آخرتَه بدنيا غيرِه» قال: «فبكى سليمانُ بكاءً شديدًا»[١]

ودخل -يا أمير المؤمنين- ابنُ السَّمَّاك على أمير المؤمنين الرشيد، فقال له: «عِظْنِي وأوجِزْ» فقال: له: «يا أمير المؤمنين، إنَّه ليسَ أحدٌ من هذا الخَلقِ إلا ولَه مَقامٌ بين يَدي اللهِ تعالى ومُنصرف، فانظر إلى أين يكون منصرفُك؛ إلى جنة أو إلى نار» فقال له الفضل بن الربيع -وهو قائم على راسه-: «إلى أين يكون منصرفه؟! إلى جنةِ اللهِ ورضوانِه ومجاورةِ نبيه محمدٍ ﷺ» فقال له ابن السَّمَّاك: «يا أمير المؤمنين، لا يغرنك هذا مِن نفسِك، فإنك يومئذ لا تراه ولا يراك، وأنتَ اعلمُ بنفسِك» فبكى أمير المؤمنين بكاء شديدًا.

ودخل -يا أمير المؤمنين- رجل على عبد الملك بن مروان، فقال له عبد الملك: «تكلم» فقال: «ما أتكلم به وقد علمتُ أنَّ كلَّ كلامٍ يتكلم به المتكلم وَبَالًا عليه إلا ما كان لله طاعة؟!» فبكى عبد الملك وقال: «يرحمك الله تعالى، لم يزل الناس يتواعظون ويتواصون ويتراحمون» فقال له: «يا أمير

---

[١] رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (ج٦٨ص١٧٥) وابن خلكان في «وفيات الأعيان» (ج٢ص٤٢٤)

المؤمنين، إن للناس في القيامة جولةً لا ينجو من غُصَصِ مرارتها وَمُعَايَنَةِ الرَّدَى فيها إلا مَن أرضى اللهَ بسَخَطِ نفسِه» فبكى عبد الملك حتى اشد بكاؤه، ثم قال: «لا جَرَمَ، لأجعلنَّ هذه الكلمات نُصب عيني ما عشت» ثم كتبها بيده[١]

ودخل رجلٌ على عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فقال: «يا أمير المؤمنين، احذر قاتل الثلاثة» فقال عمر: «ويحك، وما قاتل الثلاثة؟» قال: «هو الرجل يأتي القومَ بالحديث الكذبِ فيقتُلُ الإمامُ ذلكَ بحديثِ هذا الكذاب، فيكونُ قد قتل نفسَه وصاحبَه وإمامَه» فبكى عمر رحمة الله عليه[٢]

قال عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما: نظر عمر إلى رجل وقد أذنب ذنبا، فتناوله بالدرة فقال الرجل والله يا عمر لإن كنتُ أحسن لقد ظلمتني ولإن كنت اسأت ما علّمتني، فقال عمر: صدقت استغفر الله دونك، فافتد من عمر، والق الدرة إليه، فقال: بل هبها لله عز وجل

قال عبد العزيز: فبكى المأمون بكاء شديدًا، وانا اتكلم لا أقطعُ الكلامَ حتى رأيته قد مسح وجهه بمنديلٍ فأمسكتُ وقطعتُ ما كنت فيه،

---

[١] رواه ابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (١٠٥)

[٢] رواه عبد الرزاق في الكتاب الذي طبع باسم جامع معمر بن راشد وهو جزء من المصنَّف (٢٠٦٤٥)

فنظرَ اليَّ، فقلتُ: يا أمير المؤمنين إنمّا بدأتُ بحق الله عليَّ بذكر ما خصَّ اللهُ بهِ أميرَ المؤمنينَ مِن عظيمِ الأخلاقِ وجميلِ الأفعالِ، وما اوجبه الله تعالى على الخلق من طاعته، وصِلَته بما شرفه الله تعالى من الحِلم، وزيَّنَهُ به مِن العلم، وكرَّمَه بالعفو، وأتبعتُ ذلك بما رُويَ عن آبائِه -رضوان الله عليهم- ليكونَ زائد في نعم الله عنده، وموجدًا للصفح عما كان مني مِن جهل أو خطأ، فاني أعترِفُ بالذنبِ وأقرُّ بالإساءةِ وأستغيثُ بأمير المؤمنينَ وأسالُه الصفحَ والتجاوزَ، فإنَّ الله تبارك وتعالى قال في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة:١٠٢] والـ«عسى» من الله تعالى واجب، فأخبرَ تعالى باعترافهم[1] أنه يتوب عليهم ويغفر لهم لَمَّا اعترفوا على أنفسهم.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران:١٣٥]

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ

---

(١) يعني: بسبب اعترافهم.

﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ١١٠﴾[النساء:١١٠] فهذه أخبار الله تعالى عن نفسه أنه يغفرُ لِمَن اعترف واستغفرَ ولم يُصِرَّ على ما فَعَله، ثم أنا بعدَ هذا أعتذِرُ بِمَا يوجِبُ العذرَ لي، ويزيلُ عني اللومَ والحُجةَ في ما فعلتُ إن أذن أميرُ المؤمنين -اطال الله بقاءه- في ذلك.

فقال المأمون: قل ما تريد بما يبيَّنُ به عذرُك وتزيلُ فيه الحجة عنك فيما فعلت.

[قاعدة: عدم المنع يستلزم عدم الذنب]

فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى ذَكَرَ الملائكةَ بأجمل ذِكر، ووصفهم في بأحسن صفه وامتدحهم بأفضل مِدحة، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ٢٠﴾[الأنبياء:١٩-٢٠]

وقال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ٢٧﴾[الأنبياء:٢٦-٢٧]

وقال تعالى: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ١٦﴾[عبس:١٥-١٦]

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامًا

كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ [الانفطار:١٠-١١]

وقال تعالى: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَا أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم:٦] فأخبرنا الله تعالى عن طاعتهم له وقبولهم لأمره، وشهد لهم أنهم لا يعصونه وأنهم من خشيته مشفقون

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة:٣٠] فأخبرنا تعالى عن مُراجعتهم إياه فيما أعلمَهم أنه فاعِلُه، ومُعارضتِهم له فيما اختارَه، وتعريضِهم بأنفسهم لطَلَبِ الخِلافة وأنهم أحقُّ بها ممَّن اختاره، وهم أهلُ طاعتِهِ الذين قد أثبتها اللهُ تعالى لهم ونفى عنهم العصيان، وكان فعلُهم هذا ومراجعتُهم إياه عندهم مباحًا مُطلقًا غيرَ محرمٍ ولا محظورٍ لأنه لم ينههم عنه قبلَ ذلكَ ولم يحظره عليهم، فعلِمُوا بإمساك الحظر[1] عليهم ما لم يرضه منهم[2]، فأراد تعالى أن يثبت عليهم الحجة، ويعلمهم أن ادم عليه السلام احق بالخلافة منهم، وأن مراجعتهم إياه مما قد كرهه منهم،

---

(١) امساك الحظر: أي عدم ذكر الحظر.

(٢) أي علموا أن ما حظره فإنه لا يرضاه، وما لم يحظره فإنه مباح.

فقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٠﴾﴾[البقرة:٣١] يعني في قولكم أنكم أحق بالخلافة من ادم: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣١﴾﴾[البقرة:٣١] فاعترفوا بالعجز عن علم الله وعما لم يعلمهم الله تعالى، قال: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ فدل هذا على أنه امتحن الملائكة بالمسألة عن الأسماء التي عجزوا عن علمها وعَلِمَها آدم عليه السلام، ثم سأل آدمَ فأنبأهم بها ليُعلمهم فضلَ آدمَ عليهم بالعلمِ الذي أودعه إياه وأنه أحق بالخلافةِ مِنهُم لفَضلِ علمِه، وأثبَتَ الحُجَّةَ عليهِم من أنفُسِهم، وبإقرار ألسنتِهم، وباعترافِهم بالعجزِ عما علمَه آدمُ، وأنه كان أعلمُ بما اختارَه مِنهم، ثم أعرضَ عنهُم بعدَ إثباتِ الحُجَّة عليهم، حتى لاذوا بالعرش وطافوا حوله واستغفروه فغفر لهم[١]، ولم نجد الله تعالى ذمَّهم فيما كان من أمر مراجعتهم إياه، ولا ألزَمهم ذنبًا ذَكَرَه عنهم، ولا خرجوا بمراجعتِهم إياه من صفتِه ومِدحَتِه لهم، إذ كانوا إنما عملوا ذلك بإمساك

---

[١] رواه أبو الوليد الأزرقي في «أخبار مكة» (ج١ص٢٢) عن علي السجاد ابن الحسين وفي إسناده عليُّ بن هارون العجلي، ولم أجد له ترجمة، وفيه "القاسم بن عبد الرحمن الأنصاري" وهو ضعيف.

الحَظر عليهِم، وهم عندَ أنفسِهم غير حَرِجين ولا مأزورين، ولقد تمت مِدحة اللهِ لهم وصفتُه لطاعتهم، إلى أن بعث اللهُ نبيَّه محمدًا ﷺ وهو آخرُ الأنبياء، وامتدحهُم في كتابِه الذي أنزله عليه -وهو القُرَان- وأخبره بكرامَتِهم عليه وأنهم لا يعصونَه ولا يَخرجون عن طاعته.

ولم تزل الأنبياءُ أجمعون بعد الملائكةِ يعملونَ فيما لم يُنهوا عنه ولم يحرَّم عليهم بإمساك الوحي عنهم، حتى إذا نُهوا عن شيء أو حُظِر عليهم فعلُه؛ انتهوا عنه، فلم يفعلوه ولم يقربوه وتجافوه وجانبوا من أتاه أو فعله.

فكان آدم ﷺ أول الأنبياء خلقًا خلقه الله تعالى بيده ونفخ فيه من روحه، واصطفاه لنفسه، وأسجد له ملائكته، وأسكنه جنته.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩﴾[الحجر:٢٩]

و قال تعالى لإبليس: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ﴾[ص:٧٥] فمن يبلغ عقلَه أو فَهمه أن يصفَ قَدرَ منزلةِ آدمَ

عليه السلام عند ربه وقد أسجد له صفوتَه وأهل الكرامةِ عليه مِن خلقِه، ثم أسكنه الجنةَ وأباحَه إياها يأكل منها ما تمنى حيثُ شاءَ مُباحًا مُطلقًا غيرَ ممنوعٍ ولا محظورٍ عليه، ولا حرجَ عليهِ في ما يفعل، فقال تعالى: ﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ١٨﴾[الأعراف:١٩]

وقال تعالى: ﴿وَقُلۡنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾[البقرة:٣٥] فأخبر تبارك وتعالى أنه أباحهما الجنة يأكلان من حيث شاءا، ثم أمرهما ونهاهُما، فقال عز وجل: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ٣٤﴾[البقرة:٣٥] في غير موضع من القُرَان.

وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ١١٣ فَقُلۡنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٤﴾[طه:١١٧] فلما جاء الأمر والنهي ووقع التحريم والحظر عليهما كانا بذلك ممنوعَين مما كانَ مُباحًا لهُما مطالبَين بالأمرِ والنهي، وقد أعلمَهُمَا اللهُ عز وجلَّ أنهما إن خالفا أمرَه وارتكبا نهيَه؛ كانا من الظالمين، فأوجبَ عليهما بهذا الخبرِ الطاعةَ فيما أمرهما به، والانتهاءَ عما نهاهُما عنه، والحذر مما حذرهما منه، والخوف مما توعدهما به، وهما أعظم خلقِه عنده

قدرًا، وأرفعُهم منزلة، وأعلاهم مرتبة، فلمَّا خالَفا أمرَه وارتكَبا نهيَه وسكَنا إلى من حذرهما منه؛ حقَّ عليهما عقوبتَه، فسلبهما لِباسَ كرامته، وأخرجهما مِن داره، وباعدَهما من قُربه وجِوارِه، وأهبَطَهُما من سمائه إلى أرضه، فكانَ فعلُه هذا بهِما بعدَ مخالفتهما للأمر، وارتكابهما للنهي، فقال عز وجل: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾ يعني الشجرة التي نُهوا عنها: ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١١٨﴾﴾[طه:١٢١]

وقال عز وجل في موضع آخر: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢١﴾﴾[الأعراف:٢٢] فأعلمنا عزَّ وجل أنه إنما سلبهما لباس كرامته وأخرجهما من داره، وأهبطهما مهبط العاصين، وأسكنهما دار الخاطئين بعد مخالفتِهما أمره وارتكابِهما نهيَه، ولم نجد اللهَ عز وجل احتجَّ عليهما بعلمِه السابقِ فيهما، وإنما احتج عليهما بمخالفةِ الأمر وارتكاب النهي بقوله: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢١﴾﴾[الأعراف:٢٢] فلمَّا سمِعا الخطاب من الله عز وجلَّ علِمَا أنهما قد أخطئا وظلما أنفسهما لمخالفتهما أمره، وارتكابهما

نهيه، فندِما واعترفا بالخطأ، وقالا مقالة الخاطئين: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[الأعراف:٢٣] فكان اعترافهما لله بخطاياهما عند ثباتِ الحُجة للهِ عليهما ومخاطبتِه إياهما بها، ولم نجِدِ اللهَ عزَّ وجل ذمهما على شيء كانَ مِنهما قبلَ مخالفتهما أمره وارتكابهما نهيَه.

وبذلك جَرَتْ سنة الله عز وجل في وَلَدِهما وذريتهما من بعدِهما، وكان بعد آدمَ نوحٌ عليه السلام، وهو أبو الخلقِ بعد آدم، وهو صفوة الله، اصطفاه وارتضاه وسلم عليه، وأثنى عليه وسمَّاهُ عبدًا شَكورا، فقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾[آل عمران:٣٣]

وقال جل ثناؤه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾[الصافات:٧٩]

وقال عز وجل: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾[الإسراء:٣] فذكَرَه اللهُ بأجمل ذِكر، وأثنى عليه أحسن الثناء، وقصَّ عليهِ قَصَصَه وما لبِثَ في قومِه، فقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾[العنكبوت:١٤] فصبر على أذاهم ومكرِهِم، محتسبا صابرًا، رجاء أن يهديَهم الله فيؤمنوا، وهو مع ذلك

يكثر مخاطبة اللهِ تعالى في أمرهم، ويسأله تأخير العذابِ عنهم، ويذكر له ما يرجوه مِن إيمانهم، ولا يشكوهم ولا يذمهم، حتى جاء الوقتُ الذي أذن اللهُ فيه بهلاكِهم وقضى بغرقهم، فقال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾[هود:٣٥-٣٦]

وقال في موضع آخر: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ فأعلَمَنَا جل وعزَّ أنه لم يزل نوحٌ يُكثر خطابَ ربِّه في أمر قومه ويسألَه تأخير العذاب عنهم لِمَا يَرجوه مِن إيمانهم، لأن قوله تعالى في غير موضع: ﴿وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾[هود:٣٧-المؤمنون:٢٧] دليلٌ على خطابٍ قد تقدَّم كثيرٌ منه في أمرِهم، فنهاه عن ذلك ليتم قضاءه عليهم، وكان نوحٌ ﷺ يعمل في مخاطبةِ ربِّه، ومراجعتِه في أمرِ قومِه بإمساكِ الوحيِ عن نهيِه، وإنَّ ذلك له مباحٌ مطلق غير مُحَرَّمٌ ولا محظورٌ، فلما جاء الأمر والنهي؛ وجبَ على نوحٍ ﷺ الطاعةَ للهِ جلَّ ذكرُه في اتِّباعِ أمرِه والانتهاءِ عمَّا نهاه اللهُ تعالى عنه، فانتهى ﷺ عن المُخاطبة للهِ عز وجل في أمر قومِه ومعاودةِ المسألةِ له فيهم، وأيِسَ مِن إيمانِهم، وثقُل

عليه ما كان خفيفًا، وعظم عليه ما كان يسيرًا مِن الصبرِ على مكروهِهم الذي كانَ يتقرَّبُ به إلى ربه عز وجل، ويؤمل به عَظيم ثوابِه، وعلِمَ عليهِ السلامُ أن اللهَ جل اسمُه قد أذِن في هلاكِهم، فأحبَّ ما أرادَ اللهُ فدعا عليهم فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٧﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٨﴾﴾[نوح:٢٦-٢٧] وقال [تعالى]: [١] ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾[القمر:١٠] كان ذلك طاعة لله تعالى وتقربًا إليه، ولم نجد أنَّ اللهَ عز وجل ذمَّ نوحًا ولا أثبتَ عليه حجة فيما كان مِن خِطابه -قبل النهي- في قومه، لأن ثبات الحجة إنما يكون بعد الأمر والنهي.

ثم ذكر عزَّ وجلَّ قصة نوح وابنه فقال جل من قائل: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾[هود:٤٢] وقال في موضع آخر: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾[هود:٤٥] فلم يزل نوح عليه السلام ينادي ابنه حتى أيس منه وعلم بغرقه فلما علم

[١] في المخطوطين: «ربِ إني مغلوب فانتصر» وهي تجوز على سبيل حكاية الحال، لكن أثبتُّ الآية هنا.

بغرقه رجع إلى ربه يسأله في أمره، ويذكر له ما كان وعده من نجاة أهله وكان الله تعالى وعد نوحًا عليه السلام أن ينجي أهله المؤمنين خاصة دون الكافرين، وكان نوحٌ يعمل في نداء ابنه ومناجاتِه ربَّه في أمره بإمساك الوحي عن نهيه والحظرِ عليه، وهو يرى أن ابنَه مِن أهله الذين وعده نجاتَهم، وأنه غير حَرِجٍ ولا مأزورٍ في فعله، فلمَّا نهاه اللهُ -عز وجل- عن ذلكَ، وحَظَرَه عليهِ، وأعلمه أنه ليس من اهله المؤمنين الذين وعده نجاتَهم بقوله عز وجل: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ يقول ليس مِن أهلك المؤمنين الذين وعده نجاتهم ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦﴾[هود-٤٦] فلما نهاه عن المسألة في أمر ابنه؛ وجبَ عليه الطاعةُ لأمر ربه والانتهاء عما نهاه عنه، فأمسك نوحُ ﷺ عن مُعاودةِ ربه بذكر وَلَدِه، والمسألةِ في أمره، ونَدِمَ على ما تقدَّمَ في مسألة ربه، فاعتذر إلى ربه فقال: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٌۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٤٧﴾[هود-٤٧] ولم نجد اللهَ عزَّ وجلَّ ذمَّ نوحًا فيما كان من نِدائه لابنه، ولا في مراجعته لربه قبل النهي، ولا أوجب عليهِ بذلك ذنبًا، لأنه قبل النهي غير ممنوع ولا محظور، وإنما ثبتت الحجةُ بعد النهي.

وبذلك جَرَت سُنة اللهِ عز وجل في ولدِ نوح وذريته من بعده.

ثم ذكر الله عز وجل قصة إبراهيم الخليلَ وما كان من استغفاره لأبيه، فقال تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾[الممتحنة:٤] وقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ۝٤٧﴾[مريم:٤٧] وقوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٨٦﴾[الشعراء:٨٦] وقوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ۝٤١﴾[إبراهيم:٤١] فلم يزل إبراهيمُ ﷺ يستغفرُ لأبيه وهو يعبدُ الأصنامَ مِن دونِ اللهِ وهو يعلمُ أنه عدوٌّ للهِ بإمساك الوحيِ عن نهيِه والحظرِ عليه، وكان استغفاره له للموعد الذي وعده إبراهيم: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ۝١١٤﴾[التوبة:١١٤] فكان عليه السلام غيرَ حرِجٍ ولا مَلومٍ في ذلك لأنه لم يكن نُهِيَ عن الاستغفار ولا حُرِّمَ عليه، فلمَّا نهاه اللهُ تعالى عن الاستغفار لأبيه، وأعلمه أنه عدو لله يموتُ على كفرِه فيُدخله النار، فأمره بالتبري منه ومِن قومِه؛ فوجبَ على إبراهيمَ عليه السلامُ الطاعةُ لله، وقَبولُ ما أمره به، والانتهاء عما نهاه عنه، فتبرأ إبراهيمُ عليهِ السلامُ مِن أبيه وقومه بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧﴾[الزخرف:٢٦-٢٧] فانتهى عن الاستغفار لأبيه بقوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ

وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ [التوبة:١١٤] فأخبر جل ذكره عن انتهاء إبراهيم عن الاستغفار لأبيه طاعة لربه وانتهاء لما نهاه عنه، فدل = بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ = أنه وعدٌ لإبراهم ﷺ في استغفاره لأبيه، وأنه إنما فعل ذلك لإمساك النهي والحظر عليه، وأنه كان في ذلك غيرَ حرجٍ ولا مأزورٍ حتى وقَعَ الحظرُ والتحريمُ وجاء النهيُ، ولم نجدِ اللهَ تعالى ذمَّه فيما كان مِن قَبل النهي، ولا ثبتتْ له عليه حُجة، لأن الحجةَ له إنما تثبت بعد الأمر والنهي.

وبذلك جرت سنةُ اللهِ في ولد إبراهيم عليه السلام وذريته مِن بعده.

ولم يزل النبي ﷺ يستغفر لأمه آمنةَ بنتِ وهب ما شاء الله تعالى مِن دهره إلى أن فتحَ مكةَ فركب إلى قبرها في ألف مُدَجَّجٍ[1] فنزل عند قبرها، ولم يزل يستغفر لها، وكان ذلك منه ﷺ بإمساك الوحي عن نهيه والحظر عليه، وهو في ذلك غير حرج ولا مأزور، وكان ذلك له مباحًا مطلقا إذ لم

(١) قال أبو عبيد: المُدَجْدِجُ: اللابس السلاح التام [لسان العرب]

يُنهَ عنه، وكان في عِلم اللهِ عزَّ وجلَّ أن من كان معه ممن قد سمعه يستغفر لها سيفترقون ويتحدثون بذلك عنه، فنزل المَلَكُ جبريلُ ﷺ فنهاه عن الاستغفار لأمِّه، فبكى رحمةً لها، ودخلَه ما يدخلُ الولدَ لوالدتِه، فزجره ونهاه، فاشتد بكاؤه وشهيقه، وجعل يُراجِعُ ربَّه في أمرِها، ويذكرُ استغفارَ إبراهيم لأبيه وأنه لم ينهَهُ عن ذلك، ولم ينزِل في القُرَان عليه أنه نهاه عن ذلك فهبطَ جبريلُ عليه السلام بالوحي من عند الله وهو قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٤﴾[التوبة:١١٣] فحرم الله تعالى عليه وعلى سائر المؤمنين، أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربي وحَظَرَ ذلك عليهِم جميعًا، وعلِم نبيُه ﷺ أنه قد نهى إبراهيمَ عليه السلامُ عن الاستغفار لأبيه وأمرَه بالتبرؤ منه، وأن إبراهيم عليه السلام قد أمسك عن الاستغفار لأبيه وتبرأ منه قَبولا من ربه، وانتهاءً عما نهاه عنه، وأن ذلك كان بوحيٍ أنزله على إبراهيمَ ولم يُنزله في القُرَان، ولم يذكره لنبيه ﷺ، فقال جل اسمه: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾[التوبة:١١٤] فدل هذا على أن إبراهيم قد كان نهي عن الاستغفار لأبيه، وأمره بالتبري منه بوحي أوجب عليه قبوله، وأن إبراهيم عليه السلام قبِل أمرَه وانتهى عما نهاه، وعلِم النبيُّ ﷺ أن إبراهيم الخليل ﷺ داخلٌ في جُملة المؤمنين الذين ليس لهم أن يستغفروا للمشركين،

فوجَبَ على النبيِّ ﷺ الانتهاءُ عما نهاه الله عنه؛ فانتهى ﷺ عن الاستغفار لأمه وتبرأ إلى اللهِ منها، وقال بحضرةِ أصحابه ومَن حظَر كلامه «اللّٰهُمَّ إني أتبرأ إليك مِن آمنة كما تبرأ إبراهيم من أبيه»[١] ولم نجد الله تعالى ذمَّ نبينا ﷺ فيما كان من استغفارِه لأمه قبلَ الأمرِ والنهي، ولا ألزمه لَومًا ولا أثبتَ عليه الحجة، إذ كانت الحجة إنما ثبتت بعد الأمر النهي.

وبذلك جرت سنة الله في أمر أمته كلها من بعده.

ولقد ذكر الله تعالى قصة إبليس وما كان منه في السماء مع الملائكة في الجنة، وهو في سابق علمه أنه ملعون رجيم عدو له ولخلقه مخالف لأمره مرتكِبٌ لنهيه عاص له، خلقه من نار وجعل مصيره إلى النار، ولم يخرجه [بـ]سابق علمه فيه من جنته، ولا باعده من قربه، ولا نفاه عن أهل طاعته، ولا أهبطه من سمائه إلى أرضه إلا بعد خروجه عن أمره ونهيه وثَبات الحجة عليه بمخالفته وعصيانه، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ

---

[١] روى نحوه الطبراني في الكبير (١٢٠٤٩) وصححه ضياء الدين المقدسي في المختارة (١٥٢) وقال ابن كثير قال ابن كثير: هذا حديث غريب وسياق عجيب" التفسير (ج٢ص٣٩٤)

﴿٢٧﴾ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الحجر:٢٦-٣١]

وقوله عز وجل: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة:٣٤]

وقوله عز وجل: ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴿١١٤﴾﴾ [طه:١١٧] فأخبر الله عز وجل أنه أبى قوله وخالف أمره، فغضبَ عليه ولعنه وجعله مِن المَرجومين، وأخرجه من الجنة وهو من الصاغرين، وأهبطه إلى الأرضِ، فصار من المَدحورين، بقوله عز وجل: ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف:١٢]

وبقوله: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ [الحجر:٣٤-٣٥]

فأعلمنا عز وجل أنه إنما غضِب عليه ولعنَه وجعله من المرجومين

من بعد خروجه عن أمره ومخالفته إياه بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[الكهف:٥٠] فدل هذا على أنه إنما وجبت الحجة عليه بعد خروجه عن أمره، ولم نجد الله عز وجل احتج على إبليس بعلمه السابق فيه[١]، وإنما احتج عليه بمخالفته أمره، وبذلك جرت سنة الله عز وجل في جميع خلقه.

ولقد ذكر الله عز وجل قصة فرعون، وما كان من تجبره وعتوه وتكبره وادعائه الربوبية فقال جل اسمه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾[القصص:٣٨]

وقوله: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾[الشعراء:٢٩]

وقوله عز وجل: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾[النازعات:٢٣-٢٤] وقوله: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ

---

(١) يعني أنه لم يطرد إبليس ويلعنه أو يعاقبه لأن الله تعالى تعلم أن إبليس سيعصي ويكون من الملعونين في المستقبل، بل لم ينزل عليه الأحكام قبل أمره ونهيه.

أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾[الزخرف:٥١] وقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾[القصص:٤] وقوله: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾[يونس:٨٣] فأخبرنا الله عز وجل عن كفره وادعائه الربوبية، وعلوه وتجبُّرِه في مواضعَ كثيرة من القُرَان، وإمهاله إياه حتى أرسل الله عز وجل موسى ﷺ بالأمر والنهي والآيات والعلامات، فلما كذب وعصى وجحد ما جاء به موسى ﷺ وخالف الأمر وارتكب النهي أخذه الله عز وجل وغرقه وقومه بعد تكذيبهم وعصيانهم ومخالفتهم رسل ربهم وثبات الحجة بذلك عليهم وعصيانهم ومخالفتهم الرسل، وفقال عز وجل: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾[الحاقة:٩-١٠] وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾[المزمل:١٦] وقال عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾[النمل:١٣-١٤] وقال عز وجل: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾[الأعراف:١٣٦] فأعلمنا عز

وجل أنه إنما أهلك فرعون وقومه بعد تكذيبهم الرسل ومخالفتهم الأمر والنهي، ولم نجد الله تعالى احتجَّ على فرعونّ بعلمِه السابق فيه وإنما احتج عليه بادعائه الربوبية وما كان منه من عظيم الكفر والعتو والتجَبُّرِ والتكبرِ عليه، لأن ذلك كان قبل ثَبات الحجةِ عليهِ وعلى قَومِه، وإنما ثبتت الحجة عليه وعلى قومه بعد توجيه الرُّسُلِ والأمرِ والنهيِ، وإنما احتج عليهم بعد إرسال رسله بأمره ونهيه(١).

ولقد أخبر اللهُ تعالى عن الأمم السالفة وقصَّ علينا أخبارَهم وتوجيهِ الرسل إليهم وأنزالَه الكتبَ عليهِم بالأمرِ والنهي والوعدِ والوعيدِ والترغيب والترهيب، فيلم نجد الله تعالى ذكر هلاكَ أمةٍ منهم إلا بعد تكذيبِ الرسل ومخالفة الأمر والنهي، ولا وجدناه -عز وجل- احتج في هلاك أمة منهم وفي عذابهم إلا بمخالفة الأمر وارتكاب النهي وتكذيب الرسل فيما أدوا إليهم في ذلك عن الله تعالى، فقال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ

---

(١) هذا لا يعني عُذرَ فِعَونَ بإطلاق، فمِنَ الأفعال ما جعله الله قبيحًا بالفِطرة، كقتلِ النَّفسِ بغَيرِ الحقِّ، والكَذِب، ولهذا قال تعالى لموسى: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ فأثبت له الطغيان قبل ذهاب موسى ﷺ إليه، لأنَّ الفطرة والعقل يقتضيان كذب وشناعة أن يدعي المخلوق الألوهية.

أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ﴾[الفرقان:٣٧]

وقال في قصة عاد: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ﴾[الشعراء:١٣٩]

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٣ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٤ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٥﴾[الحاقة:٤-٦]

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ۝٣٣ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾[القمر:٣٣-٣٤]

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧٦﴾[الشعراء:١٧٦][1] إلى قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ

---

(١) فائدة: وردت «الأيكة» أربع مرات في القرآن، كتبت مرتين «لئيكة» ومرتين «الأيكة» ففي حرف قُرِئت «الأيكة» في كل المواضع وعند قراءتها فإننا نُقدِّرُ ألفًا هي مِن «ال» التعريف و«الأيكة» هي الشجر الملتف.

وفي حرف قرئت بحسب خطِّ المصحف، فقرئت في الشعراء و ص: «لئيكةَ» بدون أن نقدِّرَ

=

ٱلظُّلَّةِۚ ﴾[الشعراء: ١٨٩]

وقال تعالى في موضع آخر وقد ذكر الأمم فقصَّ قَصصها، ثم قال: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ١٣﴾[ص: ١٤] يقول حقَّ عليهِم العقاب بتكذيب الرُّسل ومخالفه الأمر والنهي الذي جاؤوهم به.

وقال تعالى في موضع اخر وقد قص قصص الامام: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ١٤﴾[ق: ١٤] يقول حق عليهم الوعيد بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الأمر والنهي

وقال تعالى في موضع اخر وقد فص قصص الامم: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٤٠﴾[العنكبوت: ٤٠] فأعلمَنا الله تعالى أنه ما أخذ أحدًا منهم إلا بذنبه، ولا أهلكهم إلا بعد استحقاقه، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم

فيها ألفًا، فاللام هو أول الكلمة، والتاء مفتوحة، وكلمة «لئيكة» في هذا الحرف: اسم مدينة، وهو مضاف إليه ممنوع من الصرف.

بَعۡضٗا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ٤٤﴾[المؤمنون:٤٤]

وقال في موضع آخر: ﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ﴾[الأعراف:١٠١]

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ﴾[يونس:٧٤]

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ١٠٠ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ﴾[هود:١٠٠-١٠١]

وقال تعالى في موضع ﴿فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ١٦٦﴾[الأعراف:١٦٦]

فأخبرنا عز وجل أنهم عتَوا عما نُهوا عنه؛ فجعلهم بعد عُتُوِّهِم قردةً خاسئين، وإنما قامت حجةُ اللهِ تعالى على كل أمة بالكتاب الذي أنزله الله عليها، والرسولِ الذي أرسِلَ إليها، لأن عِلمَ النبوةِ كان في الناسِ مِن قبل جهل الجاهلين، فلم يزَل كلُّ نبي يأتي أمتَه بحجةٍ على أولها وحجةٍ على آخرها بالبلاغ، إلى أن يبعثَ النبيَّ الذي بعدَه، حتى بعث الله تعالى نبيهُ محمدًا ﷺ

إلى الناس كافةً، فكان حجةً على الناس كلِّهَا إلى أن تقوم الساعة، وبيانُ ذلك قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[سبأ:٢٨]

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[الأعراف:١٥٨] فإنما قامت الحجة على الناسِ لربِّهِم تعالى بالكتبِ والرسل التي احتجَّ بها عليهم وجعل تعالى الدلالة عليه بخبره عن نفسه الذي نطقت به كتبُه وجاءت به رسلُه، وبذلك اهتدى إليه المهتدون الذين وفقهم الله للهدى، واستنقذهم بتوفيقه من الردى، وبيانُ ذلك قوله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝٥٠﴾[سبأ:٥٠] فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يُخبر أمتَه أنه إنما يهتدي بما يوحى إليه، وهو دليل الناس كافَّة الذين يهديهم الله تعالى، فأمتَه أحرى أن لا يهتدوا إلا بالوحي الذي به يهتدي نبيهم ﷺ

وقوله تعالى لموسى ﷺ: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩﴾[النازعات:١٧-١٩] فكانت الرسالة التي جاء بها موسى عليه السلام إلى فرعون فعرضَها عليهِ أن يهديَه بها إلى اللهِ تعالى، وأبي فرعون أن يقبلَ الدلالةَ التي هي خبرُ الله تعالى عن نفسه التي يهتدي بها اليه، وبها احتجَّ اللهُ تعالى على فرعون، فقال تعالى:

﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ١٦﴾[المزمل:١٦]

وقال: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ١٨٤﴾[آل عمران: ١٨٤]

وقال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ٢٥ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ٢٦﴾[فاطر:٢٥-٢٦]

وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ٢٤﴾[فاطر:٢٤] فبدأ الله تعالى الناسَ بنعمتِه، وفَطَرَهم على معرفته، ثم قدَّمَ إليهِم الأمرَ بالإيمانِ والنهيَ عن المُنكر، فقال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٣٣ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٤﴾[الأعراف:٣٥-٣٦] فأخبرَهم الله تعالى أنَّ كتبَه ورُسلَه حجةٌ عليهِم، وقدَّمَ ذلكَ إليهم ليُثبت الحجةَ عليهِم، حتى إذا قامَت بذلكَ حجتُه عليهِم وكانت من الكافرين معصية ومخالفة لأمره وارتكابهم[١]

[١] في المخطوط: وارتكابها.

لنهيه؛ أخبر جل وعزَّ أنه جعلَ بعد المَعصيةِ عقوبتَه، وله أن يفعلَ بخلقِه ما يشاءُ غيرَ أنَّ اللهَ تعالى قضى أن يكون حكمه هكذا، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥٩﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾[يس:٦٠-٦١] فحكَمَ اللهُ تعالى بأن يحتجَّ على بني آدمَ بالحجةِ يومَ القيامةِ التي كان قدَّم علمها إليهم، كما احتج على أبيهم آدم عليه السلامُ بالحجة التي قدَّمَها عليه وعهدها إليه في أكل الشجرةِ، فأمرَه ونهاه فأكلها، وكذلك قدَّمَ إلى بني آدم الأمرَ والنهيَ ليكونَ ذلك حجةً عليهم، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾[القصص:٥٩]

وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾[الإسراء:١٥]

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢١﴾﴾[المائدة:١٩]

وقال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ﴾[النساء:١٦٥] فقصَّ اللهُ تعالى على بني آدم علمَ ما يَحتجُّ بِهِ عليهِم يومَ

القيامةِ، وأخبرَهُم بما كانوا يعتذرونَ به إليه = ويحتجون به عليهِ يوم القيامة = لو لم يبعث إليهم الرسل ولم ينزل عليهم الكتب، فقال تعالى في كتابِهِ الناطقِ على لسان نبيه الصادق قولَ حقٍّ قَطَعَ به عُذرَهُم ودحض به حجتهم وأبطل به عليهم، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ١٣٤﴾ [طه:١٣٤]

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٤٧﴾ [القصص:٤٧]

ثم أخبر عز وجل عن إقرارهم في النار واعترافهم بثبات الحجة عليهم، فقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ٦٦﴾ [الأحزاب:٦٦]

وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِّحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٦٨﴾ [الزمر:٧١]

وقال تعالى مُخبرا عن قولهم في النار: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمًا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾ [غافر:٤٩-٥٠]

و قال تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك:٦-١١] فلو كانت الحُجةُ عليهم غيرَ الرُّسُلِ والآياتِ التي تُتلى عليهم بالأمرِ والنهي؛ لقررتهُم الخزَنَة بها واحتجت عليهِم بها في جهنم، لأنَّ اللهَ تعالى قضى عليهم بأن يَدخُلُوها مُقرِّينَ له بالحُجَّةِ التي كانوا لهَا في الدنيا جاحدِين، ولولا أنَّ الحُجَّةَ تقديمُ اللهِ إليهم بالوعيد في كتُبه التي جاءتهم بها رسُله؛ ما احتجَّ عليهِم بالوعيد، فإنما قامت حجةُ اللهِ تعالى على الخلقِ جميعًا بالرسل والكتب ومخالفةِ الأمرِ وارتكابِ النهيِ.

[مراحل الدعوة النبويَّة]

فلمَّا بعثَ اللهُ تعالى محمدًا ﷺ؛ أمره يدعو الناسَ كلَّهم إلى الإيمان خاصةً دونَ العمَلِ، وهو القولُ وحده، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف:١٥٨] فكانت الدعوةُ إلى الإيمانِ للناسِ عامَّةً وكانَت الدعوةُ إلى الفرائضِ للمؤمنينَ خاصة، فأقام النبيُّ ﷺ بمكةَ عشر سنين أو بضع عشرةَ سنةٍ يدعو الناس إلى الإيمان فمن آمن بكل ما أُمر وعَقَدَ على ذلك قلبَه وصدَّقَت به جوارحُه[1]؛ كان مؤمنا، وإن مات؛ ماتَ مؤمنًا، وليس عليهِم في ذلك فرضًا يؤدونَه، ولا ينتهون عن مُحَرَّمٍ يرتكبونه، وهم في ذلك غيرُ مأزورينَ ولا عاصينَ لله تعالى، ولا يكتبُ عليهم شيء مما يفعلونَه، ولا يُطالَبُون به في الدُّنيا ولا في

---

(١) الجوارح: أعضاء الجسم، وتصديقها هو عملها، فإذا عملت بما اعتقده الإنسان فقد صدَّقت به. وهنا يتكلَّم عمَّا قبل الفرائض، فيكون تصديق الجوارح في نطق اللسان، وترك عبادة الأوثان.

الآخرة، إذ كان اللهُ تعالى لم ينهَهُم ولم يُحرِّم عليهِم ما يفعلونه[1]، وكان ذلك تخفيفا من الله تعالى عليهم وترفُّقًا بهِم في بدء الإسلام وقُرب عهدهِم بالجاهليةِ وجفاءِها، ولو جعلَ اللهُ تعالى الفرائضَ كلَّهَا مضافةً إلى الإيمان وأمر النبيَّ ﷺ أن يدعوَهم إلى الإيمان والفرائضِ معًا في وقتٍ واحدٍ؛ لَنَفَرَت قلوبُهم ولَضَاقَت بها صُدورهم وثقُلت على أبدانهم؛ فلم يجيبوا إلى ذلك، وكذلك لو حَرَّمَ عليهِم جميعَ المَحارِمِ التي كانوا يتلذذون بها من الخَمرِ والزنا والربا وجميعِ الفواحشِ كلِّهَا في وقت واحد؛ ما احتملت نياتُهم ولا بلَغَه إيمانُهُم، وكان اللهُ عز وجلَّ غنيًا عنهُم قادرًا على أن يُهلكهم ويدمر عليهم إذا أَبَو أن يؤدُّوا فرائضَه ويقبلوا أمره وينتهوا عن محارِمِه حتى لا يدعَ على الأرضِ منهم أحدًا خرج عن أمره وركب نهيه، ولكنه تعالى بخلقه وعباده رحيمٌ، عالمٌ بتدبيرهم، صبورٌ على أذاهُم، فلَم يزل المسلمون كذلك إقامتهم

---

(١) كما قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

قالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنْتُ سَاقِيَ القَوْمِ فِي مَنْزِلِ أَبِي طَلْحَةَ، وَكَانَ خَمْرُهُمْ يَوْمَئِذٍ الفَضِيخَ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُنَادِيًا يُنَادِي: «أَلاَ إِنَّ الخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ» قَالَ: فَقَالَ لِي أَبُو طَلْحَةَ: اخْرُجْ، فَأَهْرِقْهَا، فَخَرَجْتُ فَهَرَقْتُهَا، فَجَرَتْ فِي سِكَكِ المَدِينَةِ، فَقَالَ بَعْضُ القَوْمِ: قَدْ قُتِلَ قَوْمٌ وَهِيَ فِي بُطُونِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ الآيَةَ. رواه البخاري (٢٤٦٤) ومسلم (١٩٨٠)

بمكة وبضعة عشر شهرًا بالمدينة بعد الهجرة[1].

فلما سارَع الناسُ إلى الإيمان بالله وعَلِمَ اللهُ تعالى ثباته في قلوبِهم وتصديقِ جوارحِهم به وصحةِ عقودِهِم وحسنِ رغبتِهم في طاعتِه؛ فرض عليهم الصلوات، وجعل عدتها خمسًا وصرفها إلى الكعبة بعد أن كانت إلى بيت المقدس، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ [هود:١١٤]

وقال تعالى: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوۡقُوتًا ١٠٣﴾ [النساء:١٠٣]

وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت:٤٥]

وقال تعالى ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ

---

(١) عن الإمام الزهري، قال: قال هشام بن عبد الملك: أبلغك أن رسول الله ﷺ أمر مناديًا ينادي: «من قال: لا إله إلا الله فله الجنة»؟

قال: قلت: نعم، وذاك قبل أن تنزل الفرائض، ثم نزلت الفرائض، فينبغي على الناس أن يعملوا بما افترض الله عليهم. [السنة للخلال (١٢٣٧)]

قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة:٢٣٨]

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ [الجمعة:٩]

وقال تعالى ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ﴾ [البقرة:١٤٤] فلم يزل الفرضُ عليهم بالإيمانِ وإقامِ الصلاةِ لا يؤمرونَ بشيء غيرِ ذلك، ولا يُنهَون عن المحارم التي يركبونها، وهم مع ذلكَ غيرُ مأزورين ولا مطالَبين بما يفعلونَ، ولا حُجة عليهم في شيء مما أمروا بِه إلا إمساك الوحي عن نهيهم.

فلما أجابوا الله تعالى والرسول ﷺ إلى الصلاة وأقاموها وحولوا قبلتهم إلى الكعبة كما أُمروا، وثبتَت نياتُهم فيها وحسُنت رغبتُهم في إقامتها، وقَوِيَت عُزُومُهم فيها، وصارت عندهم بمنزلةِ الإيمانِ الذي وجبَ عليهِم، وأنه من تركها كان عاصيا للهِ -عز وجل- مخالِفًا لأمرِه لا إيمان له(١)، واقاموا على ذلك بُرهةً من دهرِهِم، وعلم اللهُ تعالى صدق نياتِهم؛ فرض عليهم الزكاةَ

(١) وهذا يفيد أنه على طريقة السَّلف في تكفير تارك الصلاة.

في أموالهم[١]، وأضافها إلى الصلاةِ فقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣﴾ [البقرة:٤٣]

وقال تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[البقرة:٨٣]

وقال: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة:١١٠]

فصار الفرضُ عليهم بعد الإيمان: الصلاةُ والزكاةُ فقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ [البينة:٥] فكان الفرض عليهم بعد الإيمانِ إقامَ الصلاةِ وإيتاءَ الزكاة، وهم مع ذلك يأتون كلما حُرم عليهم بعد ذلك، غير مأزورين ولا ما مأثومين ولا مُطالَبينَ بشيءٍ مِمَّا يأتونَه، ولا يُكتب عليهم فيه ذنبٌ، ولا تجبُ عليهِم حُجة إلا بتضييع شيء من الصلاة أو بترك أداء شيء من الزكاة التي قد أمروا بها.

(١) في السنة الثانية للهجرة. [السيرة النبوية لابن كثير ج٢ص٥٤٦]

ثم فَرض عليهم الصيامَ[١] في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة:١٨٣] يقول: فرض عليكم الصيام ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة:١٨٣]

ثم فرض عليهم الحج[٢] بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾ [آل عمران:٩٧]

ثم امرهم بالقتال وفرضه عليهم[٣] بقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة:٢١٦]

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التوبة:٧٣]

---

(١) في السنة الثانية للهجرة. (زاد المعاد ج٢ص٢٩)

(٢) «اختلف العلماء في السنة التي فرض فيها الحج، فقيل في سنة خمس، وقيل: في سنة ست ، وقيل: في سنة تسع، وقيل : في سنة عشر، وأقربها إلى الصواب القولا ن الأخيران، وهو أنه فرض في سنة تسع أو سنة عشر، والله أعلم» فتاوى اللجنة الدائمة (ج١١ص١٠)

(٣) القتال أبيح في أوَّل الهجرة، وفرض بعد ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ [الحج:٧٨]

وقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التوبة:٢٩]

ثم تتابَع نزولُ الأمرِ والنهي اولًا فأولًا.

فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾ [المائدة: ٦]

وقال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١]

وقال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤﴾ [الإسراء: ٣٤]

وقال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [البقرة: ٤٠]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾ [النحل:٩٠]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [النساء: ٥٨]

فقال المأمون: أقصِر فهذا يطول جدًا.

قلتُ: يا أمير المؤمنين، إنمّا أدرس درسًا[١]، وأتكلم بما يُجريه الله تعالى على لساني، وما أدَعُ أكثر من ما أتكلم به، وأنا أريد بهذا وضوحَ العذرِ عند أميرِ المؤمنينَ -أطال الله بقاءه- ولا بُدَّ مِن ذِكرِ ما حرَّم اللهُ لهم وما نُهوا عنه.

فقال له المأمون: قُل، واقتصر على بعضه.

فقلت: يا أمير المؤمنين، قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء: ٣٦]

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٦﴾ [الزمر:٦٥-٦٦]

---

(١) «الدَّارِس يَتَتَبَّعُ مَا كَانَ قَرَأَ، كَالسَّالِكِ لِلطَّرِيقِ يَتَتَبَّعُهُ.» (مقاييس اللغة ج٢ص٢٦٨)

وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣﴾ [الأعراف:٣٣]

وقال تعالى: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ﴾ [الأنعام:١٥١]

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾ [الإسراء:٣٣]

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩﴾ [النساء:٢٩]

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ﴾ [الإسراء:٣١]

قال تعالى: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ٩٣﴾ [النساء:٩٣]

وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ﴾ [الأعراف:٣٣] يعني بالإثم: الخمر.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ

وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة:٩٠-٩١]

وقال جل وعز: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء:٣٢]

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾ [الفرقان:٦٨-٦٩]

وقال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ﴾ [النور:٢]

وقال تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [النور:٣]

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [آل عمران:١٣٠]

وقال عز وجل: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾ [البقرة:٢٧٥]

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٧ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ [البقرة:٢٧٨-٢٧٩]

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٧﴾ [البقرة:١٨٨]

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ﴾ [النساء:٢٩]

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ﴾ [الأنعام:١٥٢]

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾ [النساء:١٠]

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦]

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِى ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡىٌ فِى ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِى ٱلۡأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [المائدة:٣٣]

وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [المائدة:٣٨]

وقال تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ﴿٢٨﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ﴾ [الحج:٣٠-٣١]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡىِۚ﴾ [النحل:٩]

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٌ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرًا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرًا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات:١١]

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ﴾ [الحجرات:١٢]

فقال المأمون: حسبُكَ يا عبد العزيز، فإن هذا يطول.

فقلت: يا أمير المؤمنين، فكان القومُ يعمَلون في ارتكاب المَحارِمِ قبل نُزولِ الأمر والنهيِ وهي مُباحَةٌ لهم مُطلقًا غيرَ مَحظورٍ عليهم، فلَمَّا جاء الأمرُ والنَّهيُ ووقعَ التحريمُ والحظرُ؛ صاروا ممنوعينَ مِمَّا كان مباحًا لهم وحُظِرَ عليهِم ما كان مُطلَقًا لهم، ووجَبَ عليهِم الطاعة لله تعالى فيما أُمروا به، والتناهي عما نُهوا عنه ولم يأمر بعقوبةِ أحدٍ ممن وجب عليه عقوبته أو أقام عليه حدًا في الدنيا إلا بعد مُخالفةِ الأمرِ والنَّهيِ وارتكابه النهي، كما وجب عليهم الإيمانُ والصلاة والزكاة والصومُ والحج، لا فرق بين ذلك، فمن أطاع أمرَ ربه وتناهى عمَّا نهاه اللهُ، فمَن كانَ مطيعًا لله؛ له الثواب والجزاء، ومن خالف أمرَه وارتكبَ نهيَه؛ كانَ عاصِيًا لله مُسحقا للعقوبات والعذاب، إن شاء عذبَه وإن شاء عفا عنه.

وأنا أذكر ما وَعدَ اللهُ لأهل طاعته وطاعةِ رسولِه ﷺ، ومِن قِبَل ما أُمر به وعمل به، وما تواعد به أهل الخلاف والعصيان مِن العذابِ والعِقَابِ في كلِّ شيءٍ قدَّمتُ ذكرَه في الأمر والنهي ليقفَ أميرُ المؤمنينَ -اطال الله بقاءه- عليه.

إن اللّٰهَ تعالى تجاوَزَ عن الخلقِ في ما كانَ منهم قبل نُزول الأمرِ والنهيِ، ولم يُطالبهم بشيء كان منهم في ترك فرض ولا ارتكاب مُحَرَّم حتى أمرهم ونهاهم، ووجب عليهم الطاعةُ بالأمر والنهي، وقامت الحُجة عليهِم بالأمر والنهي، ولم نجد اللّٰهَ تعالى احتج على أحدِهم إلا بمخالفته للأمرِ والنهيِ، ولم يأمر بعقوبة أحدٍ ممن أوجَب عليهِ العُقوبةَ وأقام عليه حدًا في الدنيا إلا بعد مُخالفتِه الأمرَ وارتكابِه للنهيِ، ولم يذم أحدا مِن المؤمنين بشيء كان منه قبل نزول الأمر والنهي، فيبسطَ العذرَ لي في ما أتيتُ، إذ كان لي مُباحًا مُطلقًا بإمساك النهي لي عنه، وتأخير الحظر لي فيه، وإنْ كنْتُ غيرَ ملوم ولا مذموم في فعلي، وغيرَ مخالف لأمير المؤمنينَ ولا مرتكبًا لنهيه، إلا ما جَرَت به سنةُ اللّٰه تعالى في ملائكته وأنبيائه وأعدائه.

فأما وعدُ اللّٰه تعالى أهلَ طاعته من عظيم الثواب فهو قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ٦٩﴾[النساء:٦٩]

فقال بشر: يا أمير المؤمنين -أطال اللّٰه بقاءه- إنه لا يفرغ من هذا إلى الليل، وكلُّ مَن هاهنا يعلمُ ما وعدَ اللّٰهُ أهلَ طاعته مَن الثواب، وما توعد به أهل معصيته من العقاب، وقد تكلم اليومَ وهَذَى ودَرسَ ما لو كُتِبَ في

مئةِ ورقةٍ ما كفاه مما لا عذر له في شيء منه.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أميرَ المؤمنين -أطال الله بقاءك- مَن أبلغ قولا وأحسن قَصصًا وأظهر عُذرًا ممن تلا بعذره قُرَانًا، واحتج لنفسه وفعله بما أباحه الله تعالى وأطلقه ولم يحرمْه ولم ينه عنه ولم يذمَّ فاعله، وجرت بذلك سُنته في كتابه لأهل وَلايته وعداوته؟

فقال بشر: هذه خرافاتٌ قد عمِلها، يظن أنَّ أميرَ المؤمنينَ أطال الله بقاءه يسمعُها أو يقبلها أو يلتفتُ إليها، هذا مَتَاعُ القُصَّاصِ الذي يصلُحُ للعَوام، وقد حفظتَه لتجمَعَهُم وتغريهم بأهل العلم.

فقال عبد العزيز: إني لم أخاطب بشرًا ولم أعتذر إليه، وإنمّا اعتذرتُ إليكَ لِمَا أوجبَه اللهُ تعالى مِن طاعتِك وأسكنَه قلبي مِن هيبتِك وإعظامك وإجلالك، وما وهَبَهُ اللهُ تعالى لكَ مِن دِقَّةِ الفَهمِ، وكمالِ المعرفةِ، والتواضُعِ للخَلقِ، والرقةِ والوجلِ عند تلاوةِ القُرَانِ، وحُسنِ الاستماعِ والقَبُولِ لِمَا جاءَ في كتابِ اللهِ تعالى وعن سنةِ رسول الله ﷺ.

وألزمتُ نفسي ذنبًا وأنا غير مذنبٍ، واعترفتُ بالخطأ وأنا غير مخطئ، خضوعًا وتَذَلُّلًا لطاعتِك، واستكانَةً لأمرِكَ، وبشرٌ يعارضُني برَدِّ كتابِ اللهِ والتكذيبِ به، يزعُمُ أنَّ كتابَ الله تعالى وكلامَه وكلامَ رسول الله ﷺ

خرافاتٍ عملتُها، وأنَّ ما جرى مُنذُ اليومَ متاعُ القُصَّاصِ الذي لا يصلح إلا للعوام، يقولُ قولَ الكفار، ولقد ذمَّ اللهُ تعالى من قال مثلَ قوله، ولعنه في كتابه وأكذبه في غير موضعٍ منه، فإن أذنَ لي أميرُ المُؤمنينَ -أطالَ اللهُ بقاءه- انتزعت مئة آية أُبينُ فيها كَذِبَ بِشرٍ وكفرِه وافترائه على الله تعالى.

فقال المأمون: لهذا وقتٌ غير هذا، وقد صفحتُ عما كان منكَ وقبلتُ عذرَك، ولقد أبلغتَ في الاعتذارِ، وأوضحتَ الحُجةَ فيما كانَ لكَ مُباحًا قبلَ الأمر والنهي، والآن فقد نهيتُك عن مُعاوَدَةِ مِثلِ ذلك وحظرته عليكَ.

فقلتُ: السمعَ والطاعةَ، فمتى خالفتُ هذا الأمرَ وارتكبتُ النهي لزمَني الذنبُ ووجبت علي العقوبة.

قال بشر: وكل من قتل أو زنا أو شرب خمرا أو أتى مُحرَّمًا فقد نهاه الله تعالى نهيا خاصًا ودخل في عموم النهي؟

قال عبد العزيز: كلُّ شيء نهى اللهُ عنه في كتابِه على لِسانِ نبيه ﷺ، وحرمَه على خَلقِه فهو حرامٌ على جميعِهِم، وعلى كل وأحد منهم، وقد خوطب به الجميعُ، وخوطِبَ بِه كلُّ وأحد منهم، وهو عامُّ التحريمِ على الخَلقِ، وخاصًا على كل وأحد منهم، وقد دخل في النهي كل وأحد وصار حراما على كل أحد.

فقال بشر: وكل مَن خرجَ على أمير المؤمنينَ ومَرَقَ مِن الدينِ وشَقَّ عصا

المسلمين قد أمره أميرُ المؤمنينَ أو نهاه عن ذلك نهيا خاصًا؟ إنمّا هو داخل في عموم النهي، وكذلك أنت داخلٌ في عُموم نهيِه الذي تقدَّم منه -اطال الله بقاءه- في أن لا تُخرِجَ له سرًا، ولا تتحدث عنه حدِيثًا، ولا تذكر شيئًا مِمَّا جرى في مجالِسِه وبين يديه إلا ما أمر بإذاعته.

قال عبد العزيز: فقلت لبشر: أما سمعتَ ما قُلتُ منذ اليوم واحتججتُ به أن ما تثبتُ الحجةُ على الخلقَ بالرُّسُلِ والكُتُبِ والأمرِ والنهي، فما جاءني لأمير المؤمنين رسولٌ ولا كتابٌ، ولا أمرنِي ولا نهاني مُشافهةً، ولا تقدَّم له إلى رعيَّتِه رسولٌ ولا كتابٌ فنهاهم عن ذلك فتثبتَ علي الحجةُ وتجبَ عليَّ الطاعةُ لأمره والانتهاءُ عن نهيه.

فإن يكن هذا حقًا وقد تقدَّمَ بِه أميرُ المُؤمنينَ إلى أوليائِه وأهلِ مُجالَسَتِه ومن يحضرُ بين يديه ومَن يأتمِنُه على سِرِّه خاصةً دُونَ سائر الناس، فأولى الناس باتِّباعِ أميرِ المؤمنينَ مَن قد بلغَ إليهِ أمرُ أمير المؤمنين وتناهى إليه خبرُه وصح عِندَه نهيَه، وقد أقررتَ يا بشرُ أنك ممن قد بلغه أمرُ أميرِ المؤمنينَ ونهيُه، وصح عندَك، ووجبت عليكَ الطاعةُ لأمرِه والانتهاءُ عن نهيِه، ثم إنَّك بعد ذلك أولُ مَن خالفَ أميرَ المؤمنين، وخرج عَن طاعتِه،

وارتكبَ نهيَه، وعَدَل عن مُوافقتِه، وأبدَا[١] أخبارَه، وأظهَر أسرارَه، وأباح كِتمانه، والدليلُ على ذلكَ والشاهدُ عليك به: وضعُك الكتابَ الذي سميتَه بـ«كتاب الكمال في الشرح والبيان بخلق القُرَان ردا على أهل الكفر والضلال» تذكُرُ فيه مذهبَ أميرِ المؤمنينَ، واعتقادَه، وما جرى في سائر مجالِسِه مِن الكلامِ، ومناظرة كل من ناظرتِه بين يديه، حتى بلغ ذلك الكتاب إليَّ فألحقتَني في آخر الكتابِ تذكُر أنك أكفرتَني وأثبتَّ الحُجَّةَ عليَّ في خلقِ القُرَان بالشرح والبيان، وأنَّ أميرَ المؤمنينَ -أطالَ اللهُ بقاءَه- أقالَني واستبقاني بعد وجوبِ القتلِ عليَّ، وصفحَ عمَّا كان مِنِّي لِمَيله إلى العربِ، فمَن أشدُّ خلافًا لأمير المؤمنين وخروجًا عن طاعتِه ممن عصاه وارتكب نهيه وقد عرَفَه ووقفَ على صِحته وشهدَ على نفسه أنه قد بَلغَه نهيُه؟ ومَن أنصفُ واعدلُ ممن أقامَ الشاهدَ على خصمِه من كتابه وقوله[٢]؟

قال عبد العزيز: ثم أقبلت على المأمون فقلت: يا أمير المؤمنين، دَمِي مرتَهَنٌ بما قُلتُ، فليأمُر أميرُ المؤمنين بإحضارِ هذا الكتابِ الذي قد ترجَمَه

---

(١) أبدا: أظهَرَ.

(٢) بشرٌ أساء للمأمون في كتابه هذا حينما قال إنه صفح عن عبد العزيز لأنه عربي، وعبد العزيز عرف هذا، ولو أنَّه لمَّا سمِع بالكتاب سارَعَ وأخبَر به المأمون لغضب المأمون مِن بِشرٍ، إلا أنه لم يتكلَّم به حتَّى تكلمَ بشر في الأمر، وهذا دليل على أنَّ **أهل السنَّة ليس مِن منهجهم الوشاية بخصومِهم إلى السَّلاطين**.

«كتاب الكمال» فإن يكُ ما قد وصفتُ؛ علِمَ أن بشرًا قد خالف أمره، وارتكب نهيَه، وبيَّنَ، أخباره، وأظهر أسراره، وتَكَذَّبَ عليه، وباحَ بِما يجب كتمانه، وأشاعَ ما كان في سائر مجالِسِه كلها، ونسبَ أميرَ المؤمنينَ إلى مُوافقتِه على قولِه بخلق القُرَانِ، وقد أجل اللهُ قدرَ أميرِ المؤمنين عن أن تَظهر له مقالةً أو يقفَ له على مذهب غير موافقة الكتاب والسنة وما مضى عليه الراشدون المهتدون، ثم هو -أيده الله- تعالى أعلى عينا بما يراه بعد وقوفِه على صحه قولِي، وهذا كتابي الذي ذكرَ بشرٌ أني وضعته وأمليته على الناس وتكذبت فيه وحكيت أضعاف ما جري بيننا، (فأخرجته من كُمي ورميتُ به بين يديه) فليأمر أمير المؤمنين بقراءتِه عليهِ، فإن يكونَ فيه زيغٌ مِمَّا جرى في المجلس، أو يكون حرفًا زائدًا غير ما جرى أو حرفان زائدان مم لم يسمعه أمير المؤمنين؛ فهو في حلٍ وسعة مِن دَمِي، وإنمّا كتبتُ هذا الكتاب -يا أمير المؤمنين- ليقف الخلقُ كلُّهم على عدلِ أميرِ المؤمنين ونِصفَتِه[1] وميلِه إلى الحقِّ، ومُوافقه إياه واتّباعِه له حيثُ كانَ، وعُدوله عن الباطلِ وانحرافِه عن أهله حيثُ كان.

قال عبد العزيز: فاقبَلَ المأمونُ على بِشرٍ فقال له: قد وضعتَ هذا

---

(١) النِصفة: الإنصاف.

الكتابَ الذي ذكره عبدُ العزيز مُترجما بـ«كتاب الكمال»؟

قال: نعم يا أمير المؤمنين، وأنا وضعتُه أحتجُّ بِه على من خَالَفَنِي في خَلق القُرَانِ، وأذكرُ الشرحَ والبيانَ، وأما ما حكى عبدُ العزيزِ مما فيهِ، فقد أبطَلَ، وما فيه مما حكاه شيء، وأنا أُحضرُه حتى يقفَ أميرُ المؤمنين على بُطلان قولِه.

قال عبد العزيز: فلمَّا علمَ المَأمونُ أنه كما قُلتُ وأني ما تزيدت فيه، وأنه كذَبَ في ما قال، فاقبل عليه فقال: أنت تضعُ مثلَ هذا الكتاب وتقرؤه على الناسِ وتُمليه عليهم، وتجيءُ وتذكرُ ما فعلَه غيرُك مِمَّا تقدَّمَ فعلُك فعلَه، فأيُّ حجة أبلَغُ لخصمِكَ عليكَ مِن أن يكونَ تأسَّى بكَ واقتدَى بِكَ وفعلَ مثلَ فِعلِكَ، وما الحُجَّةُ عليهِ بأثبتَ منها عليكَ، إلا أنه أعلم بما يأتي منك، فما الحجةُ له بألزمَ مِنها لك.

[التفريق بين الإسم واللقب]

فقال بشر: يا أميرَ المؤمنين -أطال الله بقاءك- أنا أمدح أميرَ المؤمنينَ في كُلِّ كَلِمة، وأدعوا له، وأنسُبه إلى الخلافة التي لا شيءَ أجل منها، وعبدُ

العزيزِ يُلَقِّبُ أميرَ المؤمنين في كل كلمة[١]، ولا ينسبُه إلى الخلافةِ، ولا يدعو له، وإنمّا جُعل اللقبُ للخُلفاءِ بعد الأسماءِ والنُّعوتِ والصفاتِ ليفرِّقَ بها بين بعضهم وبعض[٢]، لا لأنها تُذكَر عن أحد منهم مُفرَدًا، فمن أفرَدَ أميرَ المؤمنين -أطال الله بقاءه- باللقبِ فإنما أراد تنُقصه وعيبَه، وهذا هو الذي أباحَ دمَه واوجبَ عُقوبَتَه، وكل شيء يقع فيه الاعتذارُ إلا هذا فلا عُذر فيه لقائلٍ ولا حجةَ فيه لِمُحتَج.

قال عبد العزيز: فقلت له: اسكت، أخرَسَ اللهُ لسانَك وأعمى بصرَك كما أعمى قلبَك يا عدوَّ اللهِ، تستقبلُ أمير المؤمنينَ بهذه الألفاظِ القبيحةِ الدَّميمةِ[٣] التي تُشبهُك وتُشبه أسلافَكَ، التي لم يرضَها الله تعالى لعباده المؤمنين ونهاهم عنها في كتابه وعلى لسان نبيه محمد ﷺ، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ

---

(١) أي يقول «المأمون» وهذا ليس اسمه الأصلي، فاسمه عبد الله، والمأمون هي التسمية التي كان يشتهر بها.

(٢) الألقاب: يقصِد مثل الأمين والمأمون والرشيد والمعتصم، فكانوا يتسمون بمثل هذه الأسماء تشريفا لأنفسهم، ولأن أسماءهم الأصليَّة تتشابه.

(٣) الدميم (بالدال) هو القبيح الحقير. «عَن ابْن الأعرابيّ قَالَ: الدّميمُ بِالدَّال فِي قَدِّه، والذّميم فِي أخلاقه» (تهذيب اللغة ج١٤ص٥٩)

﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ١١﴾[الحجرات:١١] فنهى الله تعالى المؤمنينَ عن الألقاب والتنابز[١]، فتزعُمُ -يا عدوَّ اللهِ تعالى- أنَّ النبيَّ ﷺ خالفَ أمر ربه ولم يقبل قوله وارتكب نهية لأنه لقَّبَ أبا بكرٍ بالصديق[٢]، ولقَّبَ عمرَ بالفاروق، ولقَّبَ عثمانَ بذي النورين، وقد حلَّ دمُكَ -يا عدو الله- بدعواك هذا على رسول الله ﷺ، وعلى أصحابه رضي الله عنهم، وعلى الخُلفاءِ

---

(١) هذا بناءً عل أن الألقاب مذمومة مطلقًا، والأسماء هي الممدوحة، فما كان من نعت حسنٍ يضاف إلى الشخص فإنه اسم وليست لقبًا، وقد قال محمد بن يحيي الصولي (المتوفى: ٣٣٥هـ) عن الأسماء: «وإني لأعجب من إطباق الناس على تسميتها ألقابا فيقولون لقب بكذا وهذا عندي خطأ، كبير، وزلل عظيم، لأن الألقاب مكروهة ومنهى عنها في كتاب الله جل وعلا، وعلى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله جل وعز ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾» في كتاب الأوراق قسم أخبار الشعراء ج٢ص٢

وقال ابن فارس (لَقَبَ) اللَّامُ وَالْقَافُ وَالْبَاءُ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ. اللَّقَبُ: النَّبَزُ، وَاحِدٌ. وَلَقَّبْتُهُ تَلْقِيبًا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾

وقال الشاعر «أكنيه حين أناديه لأكرمه ... ولا ألقبُه، والسوءةُ اللقب» والكنية كقولنا «أبو فلان»

على ان هذا التفريق ليس لازما بالضرورة، فقد قال الله تعالى عن الفسوق اسمًا ﴿بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾

(٢) أي: «الصدِّيق» اسم وليس لقبًا، فمن قال عنه إنه لقبٌ؛ فقد اتَّهَم النبيَّ بإطلاق كلمة قبيحة على أبي بكر رضي الله عنه.

الراشدينَ إذ اختاروا الألقاب لأنفسهم ولأولادهم خلافًا لأمر الله -عز وجل- وارتكابًا لنهيِه، وقد برَّأهُم الله تعالى من ذلك ووصفهم ونعتهم بغير ما قُلتَ، فقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج:١٤] فقد حل دمُك بردِّكَ على اللهِ تعالى قولَه وأخبَارَه ونعتَه وصِفَتَه ومدحِه لخُلفاء في أرضه، ولقد امتدَحَ اللهُ أهلَ وَلايته وذم أهل عداوته وفرَّق بين مدحه وذمه، فجعل =ما كان من حَسَنٍ وجميل وخيرٍ وفضل وتُقَى وعملٍ صالح= مديحا لأهل وَلايته، فقال تعالى: ﴿بِأَيۡدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامِۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس:٥١-٦١]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [الانفطار:٣١]

وقال تعالى: ﴿أُوْلِى ٱلۡأَيۡدِى وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٥﴾ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٦﴾﴾ [ص:٤٥-٤٧]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحجر:٤٥/الذاريات:١٥]

وقال تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾[الصافات:٨٠]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ

وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ [الأحزاب:٣٥] فامتدحهم تعالى بهذه الأسماءِ وصيَّرَهَا مَدِيحًا وصِفةً لهم ونعتًا لهم وزَينا لهم، وذَكَرَ تعالى اعداءَه فقال: «المشركين» و«الكافرين» و«المنافقين» و«المجرمين» و«الفاسقين» و«الظالمين» و«الطاغين» و«الخاسرين» فذمَّهُم بهذه الأسماء وصيرها ذمًا لهم وعَيبًا لهم وشَينًا لهم.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٧﴾﴾[ص:٢٨] نفى الله جل وعز عن نفسه الشريفة أن يجعلَ أعداءَه كأوليائِه أو يمتدح أعداءَه كما امتدح أولياءَه.

قال تعالى ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾[الجاثية:٢١]

وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم:٣٥-٣٦]

وقال تعالى ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾ [البقرة:٢٢٠]

وأنتَ تزعُم أن مِدحةَ الله تعالى وذمَّه وأحدٌ، وأنَّ المَدحَ الذي أمتدح به أوليائَه لقبٌ لهم، وإن الله تعالى نهى عن اللقبِ وتواعَدَ عليهِ ولقَّبَ أنبيائَه وأصفيائه وأوليائه وارتضى لهم اللقبَ كما ارتضاه لأعدائه.

فقد أعظم الفريةَ على اللهِ تعالى وعلى رسوله ﷺ وعلى خُلفائِه الراشدين مَن جعلَ المَدحَ لقبًا والذمَّ لقبًا ولم يفرق بينهما، لأنه مِن سنة العربِ ولُغاتِها ومالم تزل تتعامل به في خطابها أن كلَّ شيءٍ من النُّعوتِ والصفات الصالحةِ الزاكيةِ والخيرِ والفضلِ والتُّقى والورعِ والخشوعِ والتواضعِ وأشباهِ ذلك تُسميهِ مَدحًا وزَينًا، وكلَّ شيءٍ مِن الأعمالِ القبيحة والشرِ والاذى والرَّدَى والخَنَى والفُسوقِ والفُجورِ والظُلمِ وأشباهِ ذلك تُسميهِ ذمًّا وعَيبا وشَينًا، وتُفرقُ بين المَدح والذم بأن تنسب كل ما كان عندها من المَدح إلى الاسميَّة، فتقول: «هذا أُسَمِّيه» لأن الاسمِيَّة هي غايةُ المَدح عندها وأعلاها وأرفعُها درجةً، وتنسبُ الذمَّ وكلما كان عندها مِن جنسه إلى اللقب، وهو عندها غايةُ الذَّمِّ والنهايةُ في العَيبِ: وأعلى درجاتِ العَيبِ والذَّم: اللقب[١]، فكان الفرقُ عند العربِ في المَدحِ والذَّمِّ بهذا، تجعلُ غاية

[١] في المخطوطين: «واللقب» والسياق لا يقتضي العطف.

المَدح والنهايةَ في الوَصف الاسميَّة، وتجعلُ غايةَ الذَّمِّ والنهايةَ في العيبِ اللقب، فهذا كان الفرقُ بين المَدحِ والذَّمِّ عند العربِ، وبذلك خاطبها اللّٰهُ تعالى فعقلت عنه ما أراد، وكذلك كان فعلُ رسول الله ﷺ في مَدحِ أبي بكر بالصديق، وعمرَ بالفاروق، وعثمان بذي النورين، وعليا بالرضي[١] -رضوانُ الله تعالى عليهم- أنه بالغ في مِدحَتهِم وشرَّفَهم، وجعل ذلك اسميَّةً لهم، وكذلك فعل الخلفاءُ مِن ولدِ العباس -صلوات الله عليهم- اقتدوا بنبيهم محمد ﷺ وسلكوا مسلك الخلفاء الراشدين المهتدين وأخذوا على مثالهم وتشبهوا بهم ورغبوا في سنتِهم واتِّباع مناهجهم، ولم يرغبوا في سنة من

---

[١] لا شك أنَّه رضيٌّ، إلا أنَّ نسبة هذا الاسم لأمير المؤمنين غير موجود في مخطوط جامعة الملك سعود، ولم أجد هذا اللقب إلا قريبا منه في رواية شيعيةً ذكرها شهاب الدين الشافعي الإيجي (عاش في القرن التاسع، وهو غير العضد الأشعري الإيجي صاحب كتاب المواقف) في كتابه «توضيح الدلائل» (ص١٥٠) وقال فيها: «روت الثقات: أنّه لمّا ولد عليّ (عليه السلام) أتى أبوه أبو طالب البيت، فقال:

يا ربّ ذا الغسق الدجيّ *** ربّ البلد الضحي

و القمر المبتلج المضيّ *** بيّن لنا باسم ذا الصبيّ

فأجابه الهاتف:

خصّصتما بالولد الزكيّ *** الطيّب المطيّب الرضي

و إنّ اسمه من شامخ العليّ *** عليّ اشتقّ من العلي»

تقدَّمَهُم من خلفاء بني أميةَ الذين رغبوا عن سُنَّةِ الخُلَفاءِ الراشدين المُهتَدين وعن مِدحتِهم، فجُعلت المِدحة للخلفاء من بني العباس -رضي الله عنه- وتمت النعمةُ عليهِم، وتكاملَت الصفاتُ الجميلة فيهم، وأمير المؤمنين يعلم ويشهد لي بذلك وبصحة ما أقول إذ كان بيتَ اللغة واعلمَ خلق الله يقول العرب، وإنه لَيَعلَمُ -أيده الله- أن قوليَ «المأمونُ» أعلى وأجلُّ مَن قولي «الخليفة» و«المَلك» إذ كانتْ هذه الصفاتُ قد وقعت على غير مستحقها ممن تقلَّد هذا الأمرَ من قَبلِ وَلَدِ العبَّاسِ، فإن الله تعالى شرَّف ولدَ العباس بأن شرَعَ هذه القضية التي هي غاية المدح والنهاية عند العرب، وحبَّبَها إليهم، وجعلها باقيةً فيهم يتوارثونها وأحدًا عن وأحدٍ وهي الاسمية.

فقال بشر: ليسَ كلما تحكيه عند العرب نقبلُه منكَ، لأنك تحكي شيئًا كثيرًا ليس هو من قَولها، فإن كان هذا كما تزعُم من قولها فأخبرنا بشيء مِن قولِهَا تستدلُّ بِه على صِدقِ قولِكَ.

قال عبد العزيز: كيفَ يتهيأ لي التزيُّد على العرب وبيتُ اللغة ومعقِلُها يسمعُني، فافهم واسمع جواب ما سالت عنه.

إنَّ العرب تقول اسم وإسمِيِّة، ولقب.

فأما الاسم: فعبدُ الله، ومحمد، وزيد، وبكر، وما أشبهه.

وأما الاسمية: فما كان مدحًا مثلَ قولهم: المهدي، والرشيد، والمأمون، ومثلُ قولهم: البطل[١] والكامل.

وأما اللقب: في مثل قولهم: رأس الكلبِ، ووجه النعجة، وذنب العنز، وأشباه ذلك مما يَغضبُ منه من نُسب إليه، وما هو ذم، وهو الذي نهى الله تعالى عنه بقوله ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾[الحجرات:١١] فهذا الذي تتعارفه العرب في لُغاتِهَا وكلامِهَا

[أمثلة على الإسم واللقب]

فقال بشر: فأوجِدنا من كلامِها شيئًا مَدَحت به إنسانا أو ذمته أو غيرت ذمَّه بمدحٍ نقلته إليه.

قال عبد العزيز: فقلت: قد فعل ذلك رسول الله ﷺ، بزيد، كان لقبُه «زيدُ الخيلِ» وكان يكره ذلك اللقب، فنقله رسول الله ﷺ إلى المدح فقال: نجعله «زيد الخير» فصار بهذا مِدحةً له، وأزال عنه اللقبَ الذي كان يُغضبه، وكان بنو لأي بن شماس يلقبون ببني أنفِ الناقة فيغضبهم ذلك ويبلُغُ منهم، فمَدَحَهُم الحُطيئة الشاعر فقال:

---

[١] في المخطوطان: «البطال» ومعناها قبيح، وهو الفارغ الفاشل، فأثبتُّها: البطل.

قوم هم الأنف، والأذنابُ غيرُهم ومن يساوي بأنف الناقةِ الذنبا؟!

فمدحهم وصيَّره اسميَّةً لهم، وأزالَ عنهم اللقب الذي كان يغضبهم، فصار مديحًا لهُم حتى أن أهلهم يمتدحونهم بذلك، وزال عنهم اللقب، وهذا أكثر موجودٍ في كلام العرب وخِطابها وأشعارها، وإنمّا يجب أن يُطالَب بإقامةِ الدليلِ والشاهدِ على ما يقعُ فيه خلافٌ، فأمَّا ما لا اختلافَ فيه فما مطالَبَتي بإقامة الدليل عليه وأمير المؤمنينَ يعلمُ ويشهدُ لي بصحة قولي إذْ كانَ بيتَ اللغةِ؟!

فقال المأمون: قد أحسنتَ يا عبد العزيز في الاعتذارِ وإقامةِ الحُجة، وقد صفحتُ عما كان منك، وما قلتَ إلا ما تتعارفُه العربُ وتتعامَلُ بهِ في خِطابها ولُغَاتِها.

قال عبد العزيز: ثم أقبل المأمونُ على بِشرٍ، فقال له: الخطأ لك ألزمُ منه لعبد العزيز في كل حال، ولكني أرجع إلى قِلة معرفتكَ باللغة، واختلاطك بالعوام، ومذهبك في كلامك، وكثرةِ خطئك وزلك، فأنت تخطئ مِن حيث لا تدري ومن حيث ترى أنك تصيب، وقد صفحت عنك أيضا كما صفحت عن عبد العزيز.

[نتيجة الجلسة]

ثم أقبل المأمون عليَّ فقال: يا عبد العزيز، تلافَ ما كان منك مما تستقبلُ، ولا تدعنَّ أحدًا ممن كتب بهذا الكتاب عنك إلا طالبتَه بردِّه إليك حتى لا يبقى عندَ أحدٍ منه نُسخَةً يُخرِجُها بعد اليوم، ولا يَذكُرُ شيئًا مما كان، فإنه متى اتَّصلَ بي أن عند أحدٍ منه نسخة، أو بلغني أن أحدًا أخرج هذا الكتاب؛ لحقك مني ما تكره، ولم أقرَّكَ على ذلك بعد الأمر والنهي الذي كان قد شافهتك به.

قال عبد العزيز: فقلت له: يا أمير المؤمنين، أطال الله بقاءك، أما أنه في خاصةِ نفسي قد سمعت ما أمر به أمير المؤمنين وما نهى عنه، وقد وجب عليَّ قبولُ أمرِه والانتهاءُ عما نهاني عنه، فلا أذكر شيئا مما جرى في المجلس، ولا مما يجري في مجالسِ بعد هذا الوقت، ولا أكتبُه لأحد من الناس [ولا][1] يسألني عنه أحدٌ من الناس فأخبره به. وأما استرجاع ما كُتِبَ عني وأخذُ كلِ نسخة في أيدي الناس حتى لا يبقى في يدِ أحدٍ نسخةٌ يذكرها ولا يُظهرها بعد هذا الوقت؛ فهذا والله -يا أمير المؤمنين- ما لا تقدر عليه أنت وقد مكنكَ اللهُ وأعلى يدك وبسطها على الخلق، فكيفَ أقدر أنا في ضعفي ومهانَتي وعجزي وقصور يدي، ولست اضمن لأمير المؤمنين ما لا أفي به ولا أقدر عليه؛ فيقف مني على خُلف موعدي وتزيُّدٍ في كلامي، فإنَّ هذا مما

---

[١] ليست في المخطوط، والسياق يقتضيها.

لا أقدِرُ عليهِ وإن اجتهدت.

فقال المأمون: ولِمَ ذلك؟

فقلت: يا أمير المؤمنين، قد كتبَه وأحد عن وأحد، وقد دار في أيدي الناس، ولا يُعرفُ مَن كتبَه ولا مَن هو عِندَه فيقصده بمطالبته، فإن أحبَّ أميرُ المؤمنين أن لا يظهرَ منه نُسخةٌ ولا يذكرَ منها شيءٌ بعدَ هذا الوقت؛ فليأمر -أيده الله تعالى- بالنداءِ في الجانبين: أنَّ من أظهر لهذا المجلس نسخةً أو ذكر منه شيئا؛ عوقب بأغلظ عقوبة، فإن هذا ينتشِرُ وينجَعُ، ولا يتهيأ لأحد إظهار شيء منه بعد النداء، فإن اتصلَ لأمير المؤمنين -أطال الله بقاءه- أني ذكرت حرفًا واحدًا بعد هذا اليوم، أو أمليته على أحدٍ، أو دفعت إلى أحد نسخةً يكتب منها؛ فدمي لأمير المؤمنين حلال.

فلم يرض هذا الجواب مني، وأظهَرَ السخط وقال: إنْ كنْتَ لا تقدرُ على هذا فالزم بيتَك، ولا تخرُجْ إلا إلى الصلاة والجمعة أو حاجة عرضت لك، ولا يجلس إليك جماعةٌ في المسجد الجامع ولا في غيره من المواضع، ولا يدخل إلى منزلك أحد، واحذر أن تتكلم بشيء تستوجب به عقوبتي.

فقلت: السمع والطاعة لله ولأمير المؤمنين.

قال عبد العزيز: فانصرفت على تلك الحالة.

فلما خرجت من بين يديه؛ أقبلَ على بشرٍ وغيرِه ممن كلَّمَه في أمري وأغراه بي قبل إحضاري، فقال لهم: هذا الرجل أوحدٌ في دَهرِه، واللهِ لاعتذاره في حاله الخوفِ والجزعِ -على غيرِ أهبة كانت منه- أحسن من كلامِه ومناظرَتِهِ، ولقد اعتذَرَ بما لَو خَرج علينا وفارقَنا وفَارَقَ عصا المسلمين ثم اعتذر بمثله لَوَجَبَ الصفحَ عنهُ وقَبولَ عذرِه، فكيفَ ولا ذنبَ له! وإنما تزيَّدتُم عليهِ وأغريتُموني به، وإنه لَمِن دميم الأخلاقِ أن ينصرِفَ مِن بينِ يديَّ بعد حُسنِ الاعتذارِ على مِثلِ هذه الحالةِ، ولكنِّي فعلتُ به ما فعلتُ ليسكُنَ عنكم ما شكوتُمُوه من تَوَثُّبِ الرَّعيةِ عليكُم وما يتصلُ بكُم عنهم فينكسروا إذا بَلَغَهُم ذلكَ بِسَخَطِي على عبد العزيز ويرجعوا الى الخوف والرهب.

قال عبد العزيز: أخبرني بهذا الكلام = الذي ذكرتُه أنه كان منه بعد خروجي من بين يديه، وما كان من الكلام الذي جعلتُه أولَ كتابي مما تكلم به أمير المؤمنين قبل توجيهه إليَّ = أبو كاملٍ الخادمُ، وكان من أهل السنة شديدَ المَحبةِ لي والميلِ لي، وكان له مِنَ المَأمون محلٌ لطيفٌ جدًا، يقوم على رأسه فلا يَخفَ عليه شيء مما يجري.

[مراجعة عبد العزيز المأمون]

قال عبد العزيز: فلم أزل في منزلي أيامًا لا يَدخل عليَّ أحدٌ، وجُعِلَتِ الأرصادُ عليَّ رجاءَ أن يقفوا على دخول أحد عليَّ أو كلامٍ لأحدٍ فيجدوا السبيلَ إلى مكروهي، وحَذِرتهم حذرا شديدا.

فلما كان بعد أيام اتصل بي ذكرُ أمير المؤمنينَ لي إذ حضروا وتكلموا بين يديه، فكتبتُ إليه قصيده واستعتبته[1] فيها ودفعتها الى أبي كاملٍ الخادمِ وسألته أن يضعها بين يديه إذا خلا ورآه طيبَّ النفس، فلم يزل أبو كامل يترقب ذلك منه حتى وجده، فوضع الرقعة بين يديه، فأخذها وقرأها وجعل يردد شيئًا فيها لم يقف عليه، وكان عالمًا بالغريب من الشِّعرِ وغيرِه، فلمَّا لم يقف على ما فيها ولم يعرفه؛ قال لأبي كاملٍ: «اركب فجئني بعبد العزيز الساعة» فجاءني أبو كامل فقال: «أجب أمير المؤمنين» وعرَّفني الخبر وما عمله وما كان من المأمونِ وحيرتِه عند قراءة الرقعةِ وطولِ فكرِه، فعلمت ما خفيَ عليه منها.

وهذه القصيدة التي كتبتها إليه [من الطويل]

(١) استعتبه: أي استرضيه، و«أَصْل العُتْبَى رجوعُ الـمُسْتَعتِبِ إلى مَحبَّةِ صاحبه» [لسان العرب]

أَيَا جَاعِلَ الدُّنْيَا عَلَى الدِّيْنِ جُنَّةً[١] فدَلَّ بِهَا للدِّيْنِ غَاوٍ وَطَامِعُ[٢]

هَلِ العُذْرُ إِلَّا مَا اعْتَذَرْتُ بِمِثْلِهِ إِلَيْكَ لَوَ انَّ العُذْرَ أَدَّاهُ سَامِعُ[٣]

إِذَا لَمْ يَكُنْ قَوْلِيْ لَدَيْكَ بِمُسْمَعٍ وَلَمْ تَرَ سَعْيًا مِنْكَ عَيْنٌ تُطَالِعُ[٤]

---

(١) الجُنَّة: هي الوِقاية، فكأنه يقول: استعملت منصبك الدنيوي لحماية الدين.

(٢) فدلَّلت (من الدلال) في الدنيا أناسًا لأجل حسن ظنك بهم وانتسابهم للدين، منهم من هو غويّ ضال، ومنهم طامع.

(في المطبوع «فذلَّ» وقد أثبتُّ ما في المخطوطين عندي، وفي المطبوع اختلافات أخرى، وكأني به أثبت القصيدة من كتاب «روضة الإعلام بمنزلة العربية من الإسلام» والله أعلم)

(٣) أي: هل يوجد عذر أبلَغ مما اعتذرت لك به، لكن لو كان المؤدي لهذا مسموعًا عندك لعذرته. وجاءت «سامع» بمعنى «مسموع» مثل «عيشة راضية» أي «مرضيَّة» وهو مما لا يستخدم إلا قليلًا عند العرب.

(٤) إذا لم يكن قولي مسموعًا عندك، ولم أرَ سعيًا مِنك إلى قبول كلامي والتخفيف عني وأنا أطالع هذا وأنتظره.

فَإِنِّيْ وَمَنْ قَدْ ضُرَّ ضِعْفًا رَعِيَّةٌ[(١)] يَرَى اللهُ أَنِّي فِيْهِـمُ لَكَ نَافِعُ[(٢)]

غَدَاةَ تَجَـلَّى سَـاعِيًـا لِشَـتَاتِهَـا وَيَرْدَعُنِيْ عَنْ جَمْعِهَا مِنْكَ رادِعُ[(٣)]

كمُسْتَعْتِبِ النُّعْمَانِ مِمَّنْ وَشَى بِهِ[(٤)] فَقَالَ بِزِيٍّ نَاصِحِ الجَيْبِ خَاضِعُ[(٥)]

---

(١) فاعلم أني ومَن قد تضرر غيري من رعيتك، وهو تضرروا ضعفَ ما تضررت أنا، فضرري بحبسي وتخويفي ومنعي من الكلام، وهم تضرروا بتخويفهم ومنعهم من الكلام إضافة إلى وجود من يضلهم عن الحق فكان ضررهم الضعف.

(٢) الله تعالى يرى ويعلم أني أنفعم بوجودي فيهم، بدفاعي عن الدين فأخفف عنك وزر المضلين الذين أطلقت يدهم ليضلوا الناس، ومع ذلك فإني لا أحرِّضُ النَّاس عليك.

(٣) أي كأن الناس كانوا أشتاتًا متفرقين بسبب الفتنة، وأنا تجليت وظهرت لأجمعهم على الحق، لكنك ردعتني ومنعتني.

(٤) أي حالي كحال النابغة الذبياني وهو من مشاهير شعراء الجاهلية حينما استعتب الأمير النعمان بن المنذر، وقد كان النابغة مُقَربًا جدًا إلى النعمان، وقد طلب منه النعمان أن يصف له زوجته، ففعل النابغةُ إلا أنه بالغ في وصف زوجة النعمان حتى وصف فرجها، وكان هناك رجل متَّهَمٌ بأنه على علاقةٍ بها، فقال: «والله ما يصف هذا الوصف إلا مَن جرَّب» فغضب النعمان وأراد قتل النابغة، فهرب. [انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة ص١٦٤]

(٥) أي النابغة قال وهو ناصح الجيب، والجيب: القلب.

حَمَلْتَ عليَّ ذنبَهُ وتَرَكْتَهُ كَذِي العُرِّ يُكْوَى غَيْرُهُ وَهْوَ رَاتِعُ[١]

كَذَاكَ يُداوِي الجِسْمَ مني مُصَحِّحًا وذاكَ لهُ الجِسمُ بِهِ الدَّاءُ نَاقِعُ[٢]

فَلَمْ يَشْفِهِ أنِّي تَجَرَّعتُ دونَهُ أمرَّ دَوَاءٍ طَعْمُهُ مُتَقَاصِعُ[٣]

وذو العُرِّ يَشْفِيْهِ مُدَاوَاةُ غَيْرِهِ إذا مَا اكْتَوَى عَنْهُ الصَّحِيْحُ المُضَارِعُ[٤]

قال عبد العزيز: فلمَّا دخلتُ على المأمون إذا هو جالس والقصيدة بين يديه على فخذه وهو ينظر فيها، فلمَّا دخلتُ قال لي: «اجلس» فجلستُ بينَ يديه ثم قال لي: أيْش هذا الذي كتبته في قصيدتك مما لا يُعرَفُ في كلامِ

---

(١) البيت للنابغة، وصدره هكذا جاء في كتاب الأمثال للقاسم بن سلَّام، ولكن الأشهر أنه قال «وكلّفتني ذنب امرئ وتركته» ومعناه حملتني جريرة المذنب وتركته، كذي العُر، وهو الجمل المصاب بمرض العر، وهو شبيه بالجرب، فالعرب يُجلسون الجملَ المريضَ ويُجلسونَ بجنبه جملا صحيحًا ويكوون الصحيح، بينما المريض راتع، أي متنعِّم لا يصيبه شيء.

(٢) كذلك كان حالي، فقد عالجتني أنا بالكيِّ طلبًا للصحَّة، وتركت بشرًا الذي اجتمع فيه المرض.

(٣) لكن هذا الذي فعلتَه من عقوبة لي -شبَّهها بالدواء المر- لم يشفِ بشرًا.

متقاصِع: يقال: «قصَعَ الماء» ابتلعه جَرْعاً [لسان العرب] وفي مخطوط شستربيتي وفي المطبوع «متقاطع» ولا معنى لها

(٤) أما الجمل المصاب بالعُر فإنه يُشفى بكَيِّ غيره، وبشر لم يُشف، ، فأيُّ نفعٍ لما فعلته بي؟!

العربِ؟

فقلت: وما هو يا أمير المؤمنين؟ فانِّي ما كتبت إلا ما تتعارَفه العرب وتتعامَل به في لُغَاتها وأشعارِهَا.

فوضع يدَه على البيت الذي قلتُ فيه

حَمَلْـتَ عليَّ ذنـبَــهُ وتَرَكْـتَــهُ كَذِيْ العُرِّ يُكْوَى غَيْرُهُ وَهْوَ رَاتِعُ[1]

فقلتُ: يا أمير المؤمنين، هذا من أصَحِّ بيتٍ تقوله العربُ وأوضَحِه معنًى لكثرة مشاهدتها لِمَا ذكرتُه منه.

فقال المأمون: أيش معنى قولك: «كَذِيْ العُرِّ يُكْوَى غَيْرُهُ وَهْوَ رَاتِعُ»؟

فقلت: يا أمير المؤمنين، عندنا في البادية داء يقعُ على الجَمَلِ يُقالُ له العُرُّ، من جنس الجرب، إلَّا أنه ليس بجربٍ، فإذا أصابَ البَعِيرَ وظَهَرَ بِه؛ لم يكن له دواء في الدنيا إلا أن يُجاء بهذا البعيرِ الذي قد أصابَه العُر فَيُبرَكُ،

---

(١) البيت للنابغة، وصدره هكذا جاء في كتاب الأمثال للقاسم بن سلَّام، ولكن الأشهر أنه قال «وكلّفتني ذنب امرئ وتركته» ومعناه حملتني جريرة المذنب وتركته، كذي العُر، وهو الجمل المصاب بمرض العر، وهو شبيه بالجرب، فالعرب يُجلسون الجملَ المريضَ ويُجلسونَ بجنبه جملا صحيحًا ويكوون الصحيح، بينما المريض راتع، أي متنعِّم لا يصيبه شيء.

ثم يُجاء ببعيرٍ صَحِيحٍ ليس به عِلَّة فيُبرَكُ بِحِيَالِ البَعيرِ، فلا يزالُ يكوى أبدًا الصحيحُ حتّى يبرأ السَّقيمُ.

فقال المأمون: هذا شيء لا أقبله ولا يكونُ مثلُه.

فقلتُ: يا أمير المؤمنين، هذا شيء تتعارفه العرب، ولا تدفعه ولا بينهم فيه خلاف، يشاهدونَه كلَّ يومٍ وكلَّ ساعةٍ.

فقال المأمون لعمرِو بنِ مَسعَدة: انظر مَن هاهنا مِن العربِ فأحضره.

فتوجَّهَ فأحضَرَ جماعَةً مِنهُم.

فقال: سلهُم: أيش هو العُر عندكم؟

فقالوا بأجمَعِهم: هو داءٌ يقع على الجَمَلِ، قريبٌ مِنَ الجَرَبِ.

فقال لهم: فما دواؤه عندَكُم؟

قالوا: ليسَ له دواء في الدنيا إلا أن يُبرَكَ البعيرُ السقيمُ، ويجاء ببعيرٍ صحيحٍ فيبرك بحِيالِه فلم يزل يكوى الصحيحُ أبدًا حتى يبرأ السقيمُ.

ثم أمَرَهم فانصرفوا.

قال عبد العزيز: ثم أقبلَ عليَّ المأمونُ وقال: يا عبدَ العزيز، ما أعجبَ

هذا! ولَمَعرفتي به اليومَ أحبُّ إليَّ مِن مئةِ ألف دينارٍ

ثم قال: فأيش أردت بقولك: «حَمَلْتَ عليَّ ذنبَهُ وتَرَكْتَهُ»

فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، حملتَ عليَّ ذنبَ بِشرٍ وقد وقفتَ على أنه خالَفَ كتابَ اللهِ تعالى وسنةَ رسولِ اللهِ ﷺ وبدَّلَهَا وحرَّفَهَا عن مواضِعِهَا وخالفَ أمرَ الله تعالى وأمرَ رسوله ﷺ وأمرَ خليفَتِهِ وأمرَ المُسلِمِينَ، وأنه قد حلَّ دمُه وعقوبتُه، وغضِبَ أميرُ المؤمنين وسخِطَ عليَّ، فحملتَ على ذنبه وأنا بريء منه، وسخِطت عليَّ وتركتَه، كذي العُرِ يُكوى الصحيحُ حتى يبرأ، وكذلك أُكوى أنا وأنا صحيحٌ حتى يبرأ بشرٌ وهو سقيم ويَشتفي مني.

قال: فأيش معنى قولك:

كَذَاكَ يُداوِي الجِسْمَ مني مُصَحِّحًا　　　وذاكَ لهُ الجِسمُ بِهِ الدَّاءُ نَاقِعُ[1]

فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، إنما سخطتَ عليَّ وأنا بريء الساحة ليرضى بشرٌ وهو سقيم، وقد ظهر كفرُه وضلالُه وقبحُ مذهبِه ودحضُ حجتِه بين يديك.

فقال المأمون: قد قبلتُ عذرَك وصفحت عمَّا كان منك كلِّه، فارجع

(١) كذلك كان حالي، فقد عالجتني أنا بالكَيِّ طلبًا للصحَّة، وتركت بشرًا الذي اجتمع فيه المرض.

إلى القعود في المسجد الجامع ومسجدك، وتكلم معهم فيما شئت مِن الكلام فقد أجزتُك ذلك وأطلقتُه لك، وزدتُ في رزقك[١] مثله. فاحظر الدار واقعد مع المُتَكلِّمين وناظر وتكلم بما تُريد، فليس لك مني إلا ما تُحب.

قال عبد العزيز: فأكثرتُ من الدعاءَ له وانصرفت على أجمل حال، وكنتُ أقعد للناس ويجتمع إليَّ خلقٌ كثير، وأحضُر مجالس أمير المؤمنين كلَّها ولا أخلو منها، وأناظر وأرد عليهم في كل شيء يتكلمون فيه.

[الخاتمة]

قال عبد العزيز بن يحي المكي رحمه الله تعالى: إنما كتبت ما جرى كما جرى، وما تركتُ مما لم أحتجَّ به ولم أذكرْه أكثر مما احتجت به، وإنما كنت أدرُس درسًا ما يُجريه اللهُ تعالى على لساني، فمن قرأ كتابي هذا أو قُرِئَ عليه؛ فلا ينسبني إلى قلَّةِ الفهم ويقول: «هذا مَبْلَغُ علمهِ» فإنه كان وقتًا يُلحَق في ممثلهِ الحَيرة، فمَن أحبَّ أن يعلَمَ أنه ما بقي عليَّ شيء إلا قد أتَيتُ عليه؛ فليقرأ رسالَتي في «فَضلِ بني هاشِمٍ الكبيرة» ويقرأ كتابَ «السُّنَنِ

(١) الرزق هنا المراد منه المال الذي يصرفه الحاكم بشكل دوري لأهل العلم.

والأحكام» وكتاب «الاعتذار» فإنَّه يقفُ على دِقَّةِ فَهمي وحُسنِ انتِزاعي[١] وفضل عِلمي.

جعل اللهُ جميعَ ذلكَ خالصًا لوجهِهِ وفي سبيل مرضاته،

إنه سميع الدعـاء

فعال لما يشاء

لا إله إلا الله العزيز الحكيم، وصلواته على محمد خاتم النبيين

وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين وسلَّم

ورضي الله عنهم أجمعين

أخـر كتـــاب

الحيدة

.

(١) يعني بالانتزاع: استخراج الفوائد والشواهد من الكتاب والسنَّة.


كتاب الحيدة والاعتذار الفريد دهره ووحيد عصره الشيخ عبد العزيز بن يحيى بن عبد العزيز بن مسلم ابن ميمون الكناني المكي رحمه الله تعالى آمين

ملك الفقير إلى الله تعالى محضار بن عبد الله ابن السيد محمد السقاف عفى الله عنهم آمين

أول مخطوط الحيدة، جامعة الرياض (١٣٠٠) ا

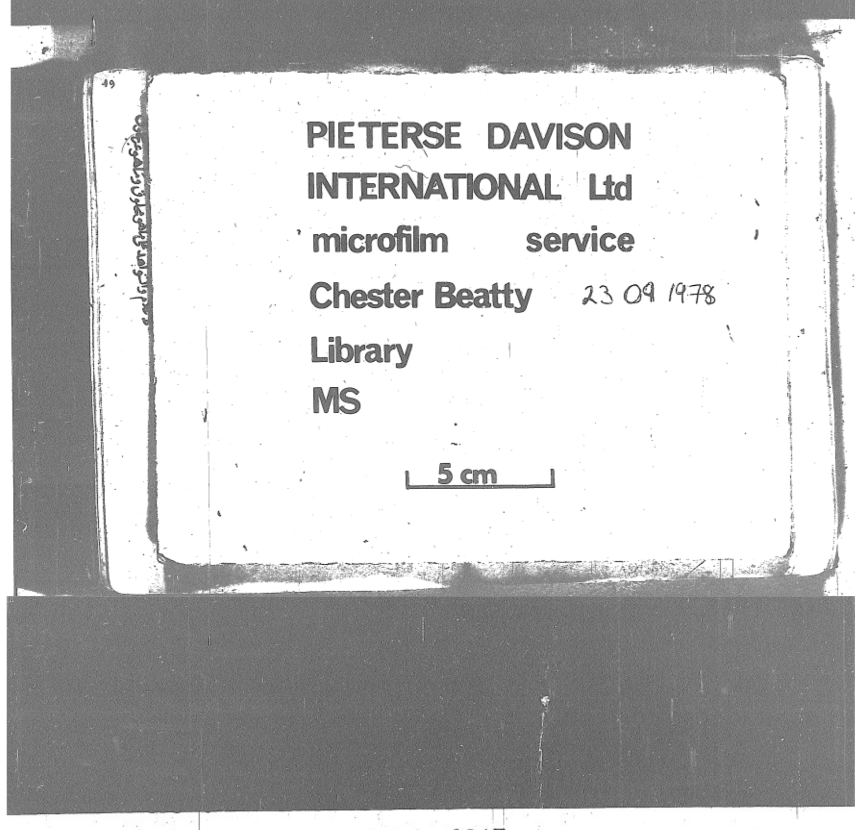
بسم الله الرحمن الرحيم

قال عبد العزيز بن يحيى بن عبد العزيز بن مسلم بن ميمون الكناني رحمه الله اتصل بي وانا بمكة
حرسها الله تعالى ما قد اظهر بشر بن غياث المريسي ببغداد من القول بخلق القرآن ودعائه
الناس وما قد دفع اليه الناس من المحنة والأخذ بالدخول في هذا الكفر والضلالة وترهيب
الناس وتفزعهم من مناظرته واحجامهم من الرد عليه بما يكسرون به قوله ويدحضون به
حجته ويبطلون به مذهبه واستتار المؤمنين في بيوتهم وانقطاعهم عن الجمعات والجماعات
وهروبهم من بلد الى بلد خوفا على انفسهم واديانهم وكثرة موافقة الجهال والرعاع
من الناس لبشر على كفره وضلالته والدخول في بدعته والانتحال لمذهبه رغبة في
الدنيا ورهبة من العقاب في الدنيا لسطوة الاكابر قال عبد العزيز فازعجني ذلك
من وطني واقلقني واسهر ليلي وادام فكري وغمي وهمي فخرجت من بلدي متوجها الى ربي
عز وجل اسأله سلامتي وتبليغي حتى قدمت بغداد فشهدت من تغليظ الأمر
واحتداده اضعاف ما كان يتصل بي ففزعت الى ربي ادعوه واتضرع اليه راغبا
وراهبا واضع له خدي وابسط اليه يدي واسأله ارشادي وتسديدي وتوفيقي
ومعونتي والأخذ بيدي وان يسلمني ولا يكلني الى نفسي وان يفتح لفهم كتابه قلبي
وان يطلق لشرح بيانه لساني واخلصت لله تعالى نيتي ووهبت لله تعالى نفسي فعجل الله
تعالى اجابتي وثبت عزيمتي وشجع جناني وفتح لفهم كتابه قلبي واطلق به لساني وشرح
به صدري فانصرت رشدي بتوفيقه اياي وانست الى معونته بنصره وتأييده لي
ولم أسكن الى مشاورة احد من خلق الله تعالى في أمري وجعلت أستر أمري واكتم
خبري عن الناس جميعا خوفا من ان يشيع خبري ويعلم بمكاني فاقتل قبل ان يسمع
كلامي فاجتمع رأيي على اظهار نفسي واشهار قولي ومذهبي على رؤوس الخلائق
والأشهاد والقول بمخالفة اهل الكفر والضلال والرد عليهم وذكر كفرهم
وتبيين ضلالتهم وان يكون ذلك في المسجد الجامع يوم الجمعة وايقنت انهم
لن يحدثوا علي حادثة ولن يعجلوا علي بقتل ولا غيره من العقوبة بعد اشهار
نفسي والنداء بمخالفتهم على رؤوس الخلائق الا بعد مناظرتي والاستماع مني
وكان ذلك كله بتوفيق الله تعالى لي ومعونته اياي قال عبد العزيز وكان الناس

٤٢

وتكلم معهم فيما شئت من الكلام فقد اجزت ذلك واطلقته لك وقد زدت في رزقك
مثله فاحضر الدار واقعد مع المتكلمين اذا احضروا وناظر وتكلم بما تريد فليس لك عندنا
الا ما تحب قال عبد العزيز فاكثرت من الدعاء له وانصرفت على اجمل حال وكنت اقعد
للناس ويجتمع الي الخلق كثير واحضر مجالس امير المؤمنين كلها ولا اخلو منها واناظر
وارد عليهم في كل شيء يتكلمون فيه قال عبد العزيز بن يحيى المكي رحمه الله تعالى انما كتبت ما جرى
كما جرى والذي تركت ما لم احتج له ولم اذكره اكثر مما احتججت به وانما كنت ادرس درسا
ما يجريه الله تعالى على لساني فمن قرا كتابي هذا او قرئ عليه فلا ينسبني الى قلة الفهم ويقول
هذا مبلغ علمه فانه كان وقتا للحق في مسألة الحيرة فمن احب ان يعلم انه ما بقي على
شيء الا قد اثبت عليه فليقرا رسالتي في فضل بني هاشم الكبيرة ويقرا كتاب السنن والاحكام
وكتاب الاعتذار فانه يقف على دقة فهمي وحسن انتزاعي وفضل علمي جعل الله جميع
ذلك خالصا لوجهه وفي سبيل مرضاته انه سميع الدعاء فعال لما يشاء لا اله الا
هو العزيز الحكيم وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى اله وصحبه وسلم تم الكتاب
بعون الملك الجليل على يد العبد الضعيف عبيد الله بن المرحوم خليل كدكا لستة وعشرين
مضت من شهر ربيع الاخر احد شهور سنة ثلاث وسبعين ومائة والف في اسلامبول
والحمد لله رب العالمين

آخر مخطوط الحيدة، جامعة الرياض (١٣٠٠)



3047

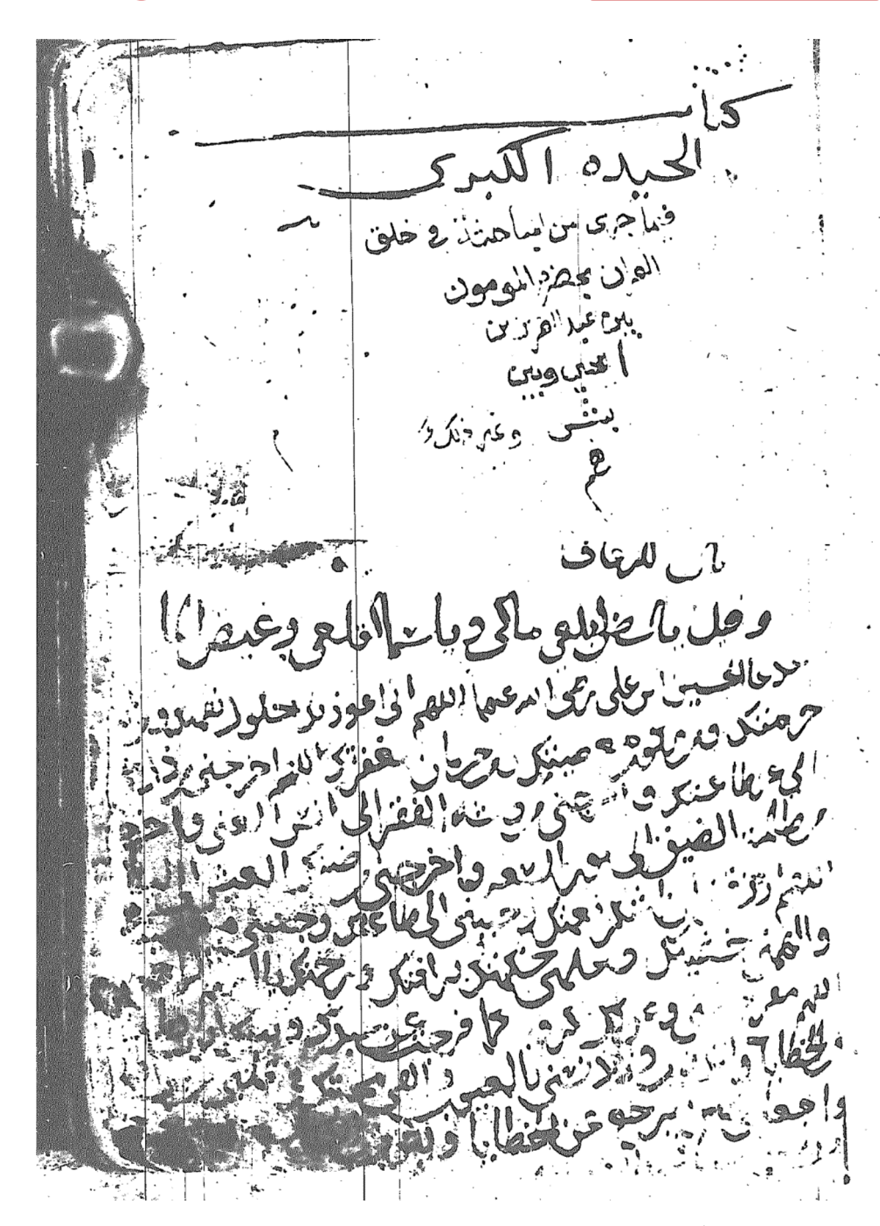
AL-ḤAIDA WA'L-I'TIDHĀR, attr. to Abū 'Abd al-Raḥmān Bishr b. Ghiyāth b. Abī Karīma AL-MARĪSĪ (d. 218/833).

[An account of an alleged disputation before al-Ma'mūn regarding the creation of the Qur'ān.]

Foll. 105. 17·5×9 cm. Clear naskh.

Undated, 8/14th century.

Brockelmann i. 193, Suppl. i. 340.



كتاب
الحيدة الكبرى
فيما جرى من [illegible] في خلق
القرآن بحضرة المأمون
بين عبد العزيز بن
[illegible]

أول مخطوط الحيدة، شستربيتي

آخر مخطوط الحيدة، شستربيتي